قصص من التاريخ

٨

وفاء

الدكتور
محمد حسن الحمصي

دار الرشيد
دمشق - ص.ب ٢٤١٣

سلسلة قصص من التاريخ

٨

وفاء

الأمين

دار الرشيد
طباعة - نشر - توزيع
دمشق - ص. ب ٢٤١٣

الطبعة الثانية

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

الإهـــداء

إلى روح سلفنا الصالح . . إكباراً لسموّ أخلاقهم . .

إلى أبناء جيلنا الصاعد . . دعوة إلى طريق الخيـر والسعادة . .

إلى كـل مخلص غيورْ . . تجسيـداً للمثل السـامية الرفيعة . .

إلى كل من يريد لأمته أن تعود إلى سابق عزها ومجدها . .
أهدي كتابي هـــذا

المؤلـف

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿وأَوْفُوا بالعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كانَ مسؤولاً﴾

قال رسول الله ﷺ:

(آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان).

قال الشاعر:

سقى الله أطـلال الـوفـاء بـكفـه
فقـد درست أعـلامـه ومـنـازلـه

وقال آخر:

اشـدد يـديـك بمن بلوت وفـاءه
إن الـوفـاء من الـرجـال عـزيـز

المقـدّمة

ما أحوج الناس اليوم إلى التمسك بخلق الوفاء.. فالوفاء ما تحلّىٰ به إنسان إلا كان زينة له ورفعة من شأنه . . وما تجرد منه إنسان إلا عُـرّي من الفضائل كلها، وهوىٰ إلىٰ أحط المستويات . .

وكما قيل: الوفاء من شيم النفوس الشريفة، والأخلاق الكريمة، والخلال الحميدة. يعظم صاحبه في العيون، وتصدق فيه خطرات الظنون . .

وتاريخنا حافل بقصص الأوفياء، الذين ضربوا المثل الأعلىٰ في الأخلاق الكريمة والذين بلغوا شأواً بعيداً في الوفاء بعهدهم، والوفاء لمن كانت لهم عليهم سابقة يد، ولو كان دون ذلك أن يجودوا بأرواحهم رخيصة على مذبح الأخلاق الكريمة والفضائل العظيمة . .

ولئن كانت الأمم تعمد دائماً إلى تخليد ذكرىٰ عظائمها، وإحياء مناحي عظمتهم في نفوس أبناء الجيل الصاعد، فإن أمتنا، وهي على ما هي عليه اليوم من كبوة ـ لفي أمسّ الحاجة إلىٰ أن

تنفض غبار النسيان عن سير عظائمها ـ وما أكثرها من سير ـ لتكون أخلاقهم الكريمة قدوة تحتذىٰ، وسيرة يقتدىٰ بها. . فينهج الأحفاد منهج الأجداد، ويتمسك الأبناء بسيرة الآباء. . بعد أن كادت الأخلاق الأصيلة تندثر في غياهب الجهل والجهالات . .

فما أحرىٰ الأحفاد اليوم أن يستنطقوا التاريخ عن سيرة أجدادهم المسلمين الأولين، ومدىٰ تمسكهم بمبادىء الأخلاق الكريمة. . فينفخوا الهمة في عزيمتهم، ويعاهدوا ربهم على أن ينفخوا روح الحياة في إسلامهم المحنّط، الذي أُفرغ من محتواه النفيس، فلم يبق منه إلا الصور والمظاهر وبعض العادات. . ليعودوا إلى حقيقة دينهم وقرآنهم . . ويتشبثوا بالعمل بما أنزله الله جل وعلا، فيجعلوه دستور سعادتهم العظمىٰ في دنياهم وفي أخراهم . .

وفي هذا الصدد فقد عمدنا في هذا الكتيب ـ كما فعلنا فيما سبقه من كتب ـ إلىٰ نبش سير تعتبر من روائع الوفاء، حدثت فيما مضى من عهود أمتنا، وكانت جديرة بأن يخلدها الزمان بأحرف من نور، لتكون ضياء ينير السبيل على مر الأيام. . غير أن الإهمال جعلها في ركن قصيّ بعيد عن متناول اليد. . ثم أتت يد النسيان لتحول بينها وبين أن تقوم بالدور العظيم الذي يرتجى منها ويؤمَّل. .

ولئن كان تاريخنا المجيد حافلاً بقصص البطولات الرائعة، التي ينبغي أن تكون كل منها في مكان الذروة من الاحترام والتقدير، فإن الواجبْ يدعو الجميع إلى أن يتعاونوا على إحياء هذه الأمجاد، بكل ما في كلمة الإحياء من معنى..

يحيونها بالذكرى الطيبة تدور على الألسن.. فلا تُنسىٰ..

ويحيونها بالقدوة الصالحة تأخذ مكانها الطبيعي الذي تستحقه.. فتكون الهدف المنشود..

ويحيونها بالتطبيق العملي، تتجدد كل يوم.. فتعايش الناس عصراً، بعد عصر..

ومهما يكن من أمر، فإن ما نقوم به من إعادة صياغة سير الأولين الرائعة، بثوب قصصي جديد، ليس إلا خطوة صغيرة جداً نخطوها نحو الهدف المنشود.

آملين من الجميع أن يتابعوا الخطوة بخطوات.. فمسيرة الألف ميل تبدأ بخطوة.

والخطوة الكبرى هي خطوة الاقتداء بسيرة هذا السلف الصالح.. بل لنقل إنها خطوة تحكيم سلفنا الصالح في سلوك الخلف اللاحق..

وليس لنا إلا أن نبتهل جميعاً إلىٰ المولىٰ سبحانه أن يلهمنا

العمل على إحياء سيرة هٰذا السلف الصالح، في سلوكنا، وفي مختلف مناحي حياتنا.. إنه على ما يشاء قدير..

وما توفيقي إلا بالله..

دمشق ١٢ / ربيع الأول / ١٤٠١هـ

الموافق ١٧/١/١٩٨١ م

محمد حسن الحمصي

وَفَاء[1]

في غلس ليلة الأحد لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر سنة عشر ومئتين للهجرة، كانت ثلاث نسوة محجبات تقطع الطريق المؤدي إلى الجسر في بغداد. . .

وكانت بغداد في تلك الأيام تعيش ظروفاً عصيبة. . فقد انتشر فيها الجند في كل مكان. . يبحثون عن «إبراهيم بن المهدي» الذي لاذ بالفرار بعدما فشلت حركته الهادفة إلى خلع الخليفة «المأمون» والحلول محله. . فجعل «المأمون» ألف درهم لمن يدله علىٰ هذا الخصم العنيد. . وربط الطرقات. . وأمر بتشديد المراقبة والحراسة على مفارق الطرق. .

وعلى الرغم من ذلك القلق الذي يلف بغداد، فإن هٰؤلاء النسوة الثلاث كن يسرن في الطريق وحدهن، في هزيع متأخر من الليل، وكأنهن غير عابئات بما قد تتعرض له الفتيات في مثل هذه الأيام التي يضطرب فيها حبل الأمن!!

ولاح للحارس الأسود الموكل بتفتيش المارة أن يستوقف هٰؤلاء النسوة الثلاث، ويسألهن عن دواعي خروجهن في هذا الوقت المتأخر من الليل. . وعلىٰ الرغم من أن تدخله هذا ليس إلا فضولاً منه فإنه استوقفهن. . وبدت أمارات الخجل على محياه وهو يقول:

ـ إلى أين أيتها السيدات المصونات؟!

ووجمت النساء حيارىٰ دون جواب. . ودفع الفضولُ الحارس إلى أن يتابع أسئلته التي ليس وراءها إلا الثرثرة والاستئناس بالحديث فقال:

ـ وأين تردن؟؟

وانتظر الجواب. .

وبدلاً من أن يسمع صوتاً يجيبه. . رأى يداً تمتد إليه وتدس في يده شيئاً. .

تحسَّس ما وقع بيده فعرف أنه خاتم. . فاستغرب هذا الجواب. .

ورفع الخاتم قريباً من عينيه ليراه من خلال النور الخافت الذي كان ينبعث من السراج المعلق قريباً منه. .

ودهش عندما رآه خاتماً من الياقوت الثمين!!

وراحت الخواطر تجول في ذهنه تقول:

ـ أسألهن من أنتن وأين تردن، فلا يجبن بشيء، ولا ينبسن ببنت شفة، ثم يكون الجواب هٰذا الخاتم الثمين؟!وإنه لخاتم ياقوت يتحلىٰ به الرجال دون النساء، فما الذي جعل هٰذا الخاتم في حوزة هٰذه النسوة؟! ثم ما الذي دعاهن إلى الجود به بمثل هٰذه السهولة؟؟ خاتم ثمين يقدم إلى مثلي في الطريق دونما داع يدعو إلى ذٰلك؟! إنه لأمر يدعو إلى الريبة حقاً!! لا بد لي من عرض الموضوع على المسؤول،فإن له أن يقدر الأمور على حقيقة قدرها، فهو أوسع نظراً، وأدرىٰ بالتعليمات المشددة التي يتلقاها من الرؤساء..

وارتفع صوته الأجش يمزق حجاب السكون ينادي المسؤول.. وحضر المسؤول بسرعة، ليعرف حقيقة ما حدث.. ورأىٰ أن ريبة الجندي كانت في محلها، فراح يفكر في الأمر ملياً..

ـ لا بد من معرفة حقيقة حال هٰذه النسوة المتحجبات..

وبعد تردد طويل أصدر أمره إلىٰ النساء الثلاث برفع النقاب عن وجوههن، فترفّعن عن ذٰلك؛ فهن حرائر من أشراف القوم،

ولا يجوز لمثله أن يأمرهن بمثل هٰذا الأمر المخلّ بالشرف، المنتهك لما جرى عليه الأمر من وجوب إسدال المرأة الحرة النقاب على وجهها!!

وأصر الرجل على موقفه هذا؛ فالأمر خطير، ودواعي الريبة موجودة بادية لكل ذي عينين.. ورضي مختاراً أن يتحمل المسؤولية **كائنة ما كانت العواقب**؛ فإن لديه من المسوغات ما يجعله يتجرأ على مثل هٰذا الموقف، خصوصاً وأن الأوامر التي يتلقاها يوماً فيوماً كانت أوامر مشددة تدعوه إلىٰ وجوب استقصاء كل ما يريب، وتحمله مسؤولية التقصير، وأي مسؤولية تلك!! لذٰلك راح يؤكد على النسوة أن لا مناص لهن من أن يرفعن النقاب ليرىٰ وجوههن ويتعرف عليهن..

وبعد لأي، استجابت اثنتان منهن لأمره ورفعن الحجاب عن وجهيهما، فلم يجد في المرأتين ما يدعوه إلىٰ الريبة.. غير أن تمنع الثالثة عن رفع النقاب حصر الريبة فيها، فراح يؤكد عليها وجوب رفع الحجاب، وإلا اضطر إلى رفعه عن وجهها قسراً.. ولما لم يجد وسيلة لإقناعها استشاط غضباً.. ومد يده إلىٰ نقابها.. وشده عن وجهها.. فبدا الوجه من تحت النقاب!!

فصاح يقول:

ـ امرأة لها لحية!! ياللخبث والدهاء!! إن الأمور لتسير على الوجه غير الطبيعي اليوم!!

وتوصل الرجل إلىٰ قناعة في أن الأمور أخطر من أن يبت فيها وحده.. فراح يسارع إلىٰ وضع القيد في أيديهم.. واستاق المرأتين و الرجل أمامه إلىٰ قائد الجسر..

وهناك انحلّت عقدة الأمور عندما عرف القائدُ الرجلَ ذا اللحية وصاح يقول:

ـ إنه هو والله!!

إنه هو الذي يطلبه سيدي الخليفة «المأمون».. والله إنه لرجل طويل، ذو لحية، قد غلب عليه السواد، ذاك اللون الذي أخذه من أمه «شكلة» جارية الخليفة «المهدي» رحمه الله!!

وسارع يشد في وثاق الرجل ليجعله وثاقاً محكماً، لا يتيح له مجالاً لينفلت منه مهما بذل من جهد، وصاح يقول:

ـ أهلاً بك يابن «شكلة».. لقد ساقك حتفك إلى قبرك!!

أهلاً بالخليفة المهزوم «إبراهيم بن المهدي»!!
أهلاً بالخليفة الفار المتخفي بزي النساء!!

لا شك أنك ستحل ضيفاً علينا الليلة؛ لنكرم وفادتك بما يتناسب مع ما صنعت مع مولانا الخليفة «المأمون»!!

وفي إحدىٰ الزوايا المظلمة، قضى الخليفة المهزوم «إبراهيم ابن المهدي» ساعات من الليل أحسّ بها وكأنها شهور طويلة.. إنه لا يدري ما يُصنَع به.. هل سيُترك على قيد الحياة حتىٰ يواجه ابن أخيه الخليفة «عبد الله المأمون»؟؟ أم أن يد غادر لئيم ستعاجله لتقضي عليه قبل الوصول إلى قصر الخليفة؟؟ وبأي وجه سيواجه الخليفة، بعد أن ثار عليه، ونـادىٰ بخلعه، ونصّب نفسه خليفة مكانه قرابة سنتين؟! وما المبررات التي يمكن أن يصوغها لنفسه في عمله المشين هٰذا؟؟ إن أحلىٰ الأمرين حنظل مَرّ!! واستوى لديه الوصول إلىٰ المأمون حياً وعدم الوصول إليه.. لأنه لا بد من مواجهة المأمون.. وإن كان يفضل أن تتم المواجهة ورأسه على طبق مجلل، يزاح عنه الستار بين يدي «المأمون».. عند ذٰلك لن تكون لآلام الندم والشعور بالذنب التي يعاني منهـا عـواقبُها المبرّحة!!

وأفاق «إبراهيم بن المهدي» من سكرته هذه على جلبة الحرس يفتحون عليه الباب، ويمسكون به، ليخرجوه قبل أن ينادي المؤذن لصلاة الصبح..

واستاقه الجند في الطريق إلى قصر الخلافة.. إلى «المأمون»..

وطار الخبر طيران النار في الهشيم.. وعلم «المأمون» بغريمه قبل وصوله، فأمر أن يُحتفظ به في دار الخلافة «لينظر إليه بنو هاشم والقواد والجند»[1]!!

وأُجلس «إبراهيم بن المهدي» في صدر قاعة كبرى يمر منها القادمون للسلام على الخليفة.. ووضعت «المقنعة التي كان متنقباً بها في عنقه، والملحفة التي كان ملتفاً بها في صدره»[2]!!

وقبع «إبراهيم» في هذا المكان الذي اختير له ذليلاً مهاناً، لم يكن ذل الإسار فيه إلا نقطة في بحر ذل نظرات الشزر التي كان يرمقه بها الغادي والرائح من الداخلين على «المأمون» من ذوي النفوذ والمكانة الرفيعة، ناهيك عن نظرات التشفي القاتلة التي كان يرميه بها الأعداء والحساد!!

وانقضى يوم الأحد بطوله، والأسير على هذه الحال التي يتمنى معها أن تخسف به الأرض فتبتلعه وتريحه من هذا العذاب الذي ما بعده عذاب.. وصار يتعجل موعد صلاة العشاء الآخرة،

(١) «تاريخ الطبري»: جـ - ٨ - صفحة - ٦٠٣.
(٢) المصدر نفسه.

ذاك الموعد الذي يتوقع أن يستدعيه فيه «المـأمون» ليـأمر بقطع رأسه!!

غير أن الناس صلوا وانصرفوا.. وانصرف «المأمون» إلى غرفة نومه.. وتُرِكَ هو في مكانه هذا، ومن حوله الحرس شاكي السلاح!!

ونام وهو على ركبتيه، لا يستطيع أن يتمدد. بل أنىٰ للنوم أن يجد إلى عينيه سبيلاً؟ وهو يفكر في مصيره المحتوم، فيتعجل هذه النهاية المفجعة، ويتمنى أن تأتيه لتريحه مما هو فيه من عناء الذل!! فكانت لا تلوح حركة في القصر إلا ويتوقع أن «المأمون» استيقظ وأمر بإحضاره لينهي وجْوده المقيت البغيض!!

وتنفس الصبح.. وقام الناس للصلاة. وهو لا يزال قابعاً في مكانه ينتظر أن ينادىٰ عليه!!

وجرت الأمور في اليوم التالي الاثنين بطيئة مملة كشأنها في اليوم السابق. الناس يمرون به.. يقذفونه بنظراتهم التي اختلطت فيها نظرات التشفي بنظرات الازدراء.. وينصرف الناس بعد صلاة العشاء.. ويبقى «إبراهيم» في مكانه يقضي ليلته كما أمضىٰ نهاره على ركبتيه.. لا لينام، بل ليتصارع مع الهواجس والأفكار، وليتلقىٰ الطعنات والوخزات من جراء الذكريات التي كان يجترها طوال الليل.. فيكون الليل أقسىٰ عليه من النهار!!

ويتكرر المشهد ذاته يومي الثلاثاء والأربعاء..

وفي صباح يوم الخميس ينادى عليه، ليُدخَل به على «المأمون» وهو في زيّه الذي قُبض عليه فيه. ملحفة في صدره.. ومقنعة في عنقه..

ويقدم «إبراهيم» رجلاً ويؤخر أخرىٰ.. إنه لا يرغب اليوم في أن يواجه مصيره المحتوم.. إذ ما كادت تقترب ساعة النهاية ويناديه الخليفة ليقتص منه حتىٰ تعزف نفسه عن هٰذه النهاية التي كان يتمناها خلال الأيام الأربعة السالفة، ويتعلق بأهداب الحياة ولو كانت الخيوط التي تشده إليها خيوط عنكبوت واهية!!

غير أن الجند يدفعونه ليجد نفسه بين يدي الخليفة في مجلسه، وقد أحاط به كبار القوم في مجلس مهيب يدخل الفزع إلىٰ القلوب!!

وما كاد يمثُل بين يديه حتىٰ ابتدره بالسلام بالخلافة قائلاً:

ـ السلام على أمير المؤمنين..

وبرقت عينا «المأمون» ـ أو هكذا خيل إلىٰ إبراهيم ـ حين دارت العين في محجرها.. واستشاط غضباً.. وصاح يقول:

ـ «لا سلم الله عليك»[1]!!

---

(١) «عصر المأمون» جـ ـ ١ ـ صفحة ـ ٣٥١.

«ولا حياك ولا رعاك»!!

وراح «إبراهيم» يمتص غضب المأمون ببراعة نادرة فقال:

ـ «مهلاً يا أمير المؤمنين.. إن ولي الثأر محكَّم في القصاص.. ولكن العفو أقرب للتقوى.. ومن تناوله الاغترار بما مُدَّ له من أسباب الشقاء أمكن عادية الدهر من نفسه.. وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب.. كما جعل كل ذي ذنب دونك.. فإن أخذت فبحقك.. وإن عفوت فبفضلك»[1].

وما كاد «إبراهيم» ينتهي من كلامه هٰذا حتىٰ وجد أن أسارير «المأمون» قد بدأت تتفتح، وأن دواعي الغضب بدأت تنصرف رويداً رويداً.. واغتنم الفرصة الذهبية التي سنحت له فراح ينشد:

ذنبي إليك عظيم وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أو لا فاصفح بحلمك عنه
إن لم أكن في مقامي من الكرام فكنه[2]

ورفع «المأمون» رأسه فبادره «إبراهيم» بالقول:

---

(١) «عصر المأمون»: جـ - ١ - صفحة - ٣٥١ -

(٢) «ثمرات الأوراق» لابن حجة الحموي. وهو مطبوع على هامش كتاب «المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي».

أتيتُ ذنباً عظيماً وأنت للعفو أهل
فإن عفوت فمنٌّ وإن جزيت فعدل[1]

فانفرجت أسارير «المأمون» والتفت إلىٰ عمه الأسير بين يديه يقول:

ـ «شاورت ـ أخي ـ «أبا إسحاق» و ـ ولدي ـ «العباس» في قتلك فأشارا به»[2].

وفي دلال من أحسّ تباشير الأمان مخبوءة وراء أستار كثيفة، راح «إبراهيم» يقول:

ـ «فما قلتَ لهما يا أمير المؤمنين»[2]؟؟

وكان الجواب:

ـ «قلت لهما: نبدؤه بالإحسان ونستأمره فيه. . فإن غيّر فالله يغيّر ما به»[2].

وبذكاء نادر استطاع «إبراهيم بن المهدي» أن يحول سلاح عدوه إلى سلاح يخدمه في معركته المصيرية هٰذه، فراح يقول:

---

(١) «ثمرات الأوراق» لابن حجة الحموي.

(٢) «عصر المأمون» جـ ـ ١ ـ صفحة ـ ٣٥١ ـ

ـ «أما أن يكونا قد نصحا في عظيم بما جرت عليه السياسة فقد فعلاً، وبلّغا ما يلزمهما، وهو الرأي السـديد.. ولكنك أبيتَ أن تستجلب النصر إلا من حيث عودك الله»[1].

والتمس إبراهيم سلاحاً فعالاً في مثل هذا الموقف، فراح يستنجد بعبرته التي أنجدته بسرعة البرق.. فسالت دمعته سخينة على خده فاستلّت ما في نفس ابن أخيه من سخائم الأحقاد التي دفنتها في نفسه الأيام العصيبة التي مرت بهما.

فالتفت «المأمون» يقول:

ـ وما يبكيك يا عم؟!.

وكان جواب المجهش بالبكاء قوله:

ـ «جذلاً.. إذ كان ذنبي إلى من هٰذه صفته في الإنعام»[2].

واستعاد نبرات صوته من غياهب البكاء، وتابع يقول:

ـ «وإنه وإن كان قد بلغ جرمي ـ مبلغ ـ استحلال دمي، فحلم أمير المؤمنين وفضله يبلغانني عفوه.. ولي بعدهما شفاعة الإقرار بالذنب، وحق الأبوة بعد الأب»[3].

---

(١) «عصر المأمون»: جـ ـ ١ ـ صفحة ـ ٣٥١ ـ

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

وانصرف «المأمون» إلىٰ أعماق نفسه متأملاً، فلم يجد أثراً لسخائم الحقد التي دفنتها الأيام في قلبه، فطاب نفساً وأنشأ يقول:

ـ «يا «إبراهيم».. لقد حُبّبَ إليّ العفو حتى خفت ألا أوجر عليه.. أما لو علم الناس ما لنا في العفو من اللذة لتقربوا إلينا بالجنايات»(١).

وصمت «المأمون» لحظة قبل أن يلفظ كلمة الفصل بقوله:
«أقول ما قال يوسف لإخوته:
﴿لا تثريبَ عليكم اليومَ، يغفـرُ الله لكم، وهو أرحمُ الراحمينَ﴾»(٢).

وبعد صمت ارتاحت له النفوس، تابع يقول:

ـ «ولو لم يكن في حق نسبك ما يبلّغ الصفح عن جرمك لبلّغك ما أمّلتَ حسنُ تفضلك ولطف توصّلك»(٣).

ثم التفت إلى وزيره، فأمره برد ضياعه وأمواله إليه كما كانت..

وكانت لفتته هذه لفتة آسرة، تأسر الحر الكريم وتشده، وهل هنالك ما يقيد الحر الكريم أكثر من العفو والإحسان؟؟ وهل هناك

---

(١) «عصر المأمون»: جـ ـ ١ ـ صفحة ـ ٣٥١ ـ
(٢) «تاريخ الطبري»: جـ ـ ٨ ـ صفحة ـ ٦٠٦ ـ
(٣) «عصر المأمون» جـ ـ ١ ـ صفحة ـ ٣٥٢ ـ

حر كريم النفس أكثر من «إبراهيم» ابن الخليفة «المهدي» وعم الخليفة «المأمون»؟؟.

ومن خلال هٰذا الرباط الوثيق الذي شد الحر إلىٰ الحر، وربط العم بابن أخيه، راح «إبراهيم» يرتجل الشعر فقال:

رددت مالي ولم تبخل عليَّ به   وقبل ردك مالي قد حقنتَ دمي
وقام علمك بي فاحتَجَّ عندك لي   مقامَ شاهدٍ عدلٍ غير متَّهَم
ما كان ذاك سوى عارية رجعت   إليك لو لم تعرها كنت لم تلم[1]
فإن جحدتك ما أوليتَ من كرمٍ   إني إلىٰ اللؤم أولىٰ منك بالكرمِ[2]

فقال المأمون: «إن من الكلام درراً.. وهذا منه..»[3]

وبعد أن خلع عليه، أطرق مليّاً.. ثم راح يسجد طويلاً ولما رفع رأسه قال:

ــ يا عم! أتدري لمَ سجدت؟.

---

(١) «عصر المأمون» جـ ـ ١ ـ صفحة ٣٥٣.
(٢) «ثمرات الأوراق» لأبن حجة الحموي.
(٣) «ثمرات الأوراق»: لابن حجة الحموي، المطبوع في ذيل كتاب «المستطرف في كل فن مستظرف» للأبشيهي.

فقال:

ــ «سجدتَ شكراً لله تعالى الذي أظفرك بعدوّ دولتك»[1]!!.

فقال:

ــ «ما أردتُ هٰذا.. ولكن سجدت شكراً لله الذي ألهمني العفو عنك»[2]!!

* * *

وفي جلسة صفاء.. صفاء ابن الأخ مع عمه.. أحب «المأمون» أن يستمع من «إبراهيم بن المهدي» شيئاً من ذكرياته عما جرىٰ له أيام كان فاراً تلاحقه الجند، ويطلبه الراغبون في نيل جعالة الخليفة لمن يدل عليه..

وراح «إبراهيم» يستعرض ذكرياته سريعاً ـ وما أكثرها ـ غير أنه يريد أطرفها وأكثرها إيناساً لقلب «المأمون».

---

(١) «ثمرات الأوراق» لابن حجة الحموي.

(٢) المصدر نفسه

وكان أن قبض على رأس الخيط.. فأنشأ يقول[1]:

خرجتُ من داري، ذات مرة، وقت الظهيرة، خائفاً أترقّب.. وكان يوماً صائفاً شديد الحر.. ولم أكن أدري أين أتوجه.. غير أن كابوس الخوف كان يلاحقني فيحرمني من أن أركن إلىٰ نفسي ساعة من الزمن.. وبينما أنا أسير هائماً على وجهي، وجدتني في طريق غير نافذ..

فحرت في أمري.. أين أسير؟! أما الرجوع من حيث أتيت فإنه كان أمراً غير ممكن.. فقد يكون سبباً في ريبة أنا في غنىً عنها.. خصوصاً وأنه كان يخيل إلي أن كل من رآني كان يراقب حركاتي!!

ونظرت أمامي.. فرأيت في صدر الشارع عبداً أسود قائماً على باب دراه.. فتقدمت إليه.. وقلت ملهوفاً:

ــ هل عندك موضع أقيم فيه ساعة من نهار؟

فرمقني ببصره.. وأدرك لهفتي.. ثم قال:

ــ نعم..

---

(١) سياق القصة فيما يلي من صفحات، مأخوذ عن كتاب «ثمرات الأوراق» لابن حجة الحموي، وهو مطبوع في ذيل كتاب «المستطرف في كل فن مستظرف»، للأبشيهي، في الصحفة ـ ٢٠٥ ـ الهامش.

وفتح الباب . .

فدخلت إلى بيت نظيف . . قد فُرش بأثاث بسيط من حصر وبسط ووسائط وجلود . . غير أنها كانت نظيفة . .

وما كدت أدخل البيت حتى أغلق الرجل الباب دوني ومضىٰ خارجاً . . فقلت في نفسي : إنه خرج ليدل عليّ طمعاً بالجعالة ! !

وبقيت ساعة على أحرّ من الجمر . . أفكر في مصيري المشؤوم الذي سأنتهى إليه . . وألوم نفسي على هذا الغباء الذي أدىٰ بي إلىٰ أن أوقع نفسي في يد واحد من عامة الناس ، لا يُدرى نبل أصله ، ولا كرامة محتده ، وليس هناك ما يردعه عن خيانة عهده والغدر بضيفه ! !

وأجد في نفسي ما أدافع به عن نفسي من أنني لم أجد بداً من اللجوء إلىٰ هذا . . ولعل الرجل يكون فيه من الدين ما يردعه عن الغدر بعهده طمعاً بعرض من الدنيا قليل لوّح به الخليفة ! !

وبينما أنا في صراع مع نفسي ترجّح فيه جانب اللوم على ما فرطت يداي من تسرع وتهور . . إذ بي أسمع جلبة على الباب . . فأرهفت سمعي . . إنهم أكثر من شخص . . ويبدوا أنهم يحملون معهم أشياء ما ترددت في أنها قيود الحديد ، جُلبت معهم لتوضع في يــديَّ ورجليّ ! !

وفي لمح البصر.. اتخذت قراري بالمقاومة مهما كانت الظروف.. وأخذت أهبتي للدفاع عن النفس..

وفتح الباب..

وقبل أن أبادىء المهاجم بالانقضاض عليه.. لمحت مضيفي يدخل وبيديه خبز ولحم.. فتوقفت عن كل حركة.. وتسمرت في مكاني مشدوهاً!!

خبز ولحم؟!! لا يحمل هذا من أراد الإيقاع بضيفه!! لا بد إلا أن أكون قد أخطأت التقدير.. ولكن لا بأس لأنتظر حتى أرى جلية الأمر..

وتوجه الرجل إلى صدرالمجلس، حيث تركني جالساً على الوسادة الجلدية، فلم يجدني هناك.. فجال ببصره في أرجاء الغرفة.. فرآني - وياللأسف - خلف الباب أمسك بيدي قطعة من حديد كانت ملقاة على الأرض؟!

وغابت ابتسامة الرجل التي كانت تعلو محياه، لتحل محلها علامة الدهشة والاستغراب.. وأدركت ما يدور، في مخيلته فاعتذرت إليه بأنني أعيد الحديدة التي سقطت على الأرض إلى مكانها..

فأقسم علي أن أجلس في مكاني وأريح نفسي.. ووضع ما بيده من أحمال.. ونادى الحمال ليُدخل ما معه.. فإذا حمال

عليه كل ما يُحتاج إليه من طعام وقدر جديدة وجرة نظيفة وأباريق جديدة.. وسارع ليحط عن الحمال ما معه من أثقال..

وبعد أن وضع كل شيء في محله التفت إلي يقول:

ــ جعلني الله فداك.. أنا رجل حجّام[1].. وأنا أعلم أنك تتقزّز مني، لما أتولاه من شؤون معيشتي.. فشأنك بما لم تقع عليه يد.. اصنع بيدك ما بدا لك من طعام..

وخرج الرجل..

وارتميت على الأرض خائر القوى..

ولولا أن الرجل تركني وانصرف لذبت حياء من نفسي..

ومددت يدي أمسح العرق المتصبب من جبهتي خجلاً مما بادأت به الرجل من سوء الظن، مع ما بادأني به من كرم الضيافة والحرص على توفير أسباب الراحة لي!!.

وتمالكت نفسي.. ووقفت تحت وطأة وخزات الجوع.. وعملت على تهيئة شيء من طعام.. وطبخت قدراً.. وجلست آكل مطمئن النفس هانيها.. في مكان آمن لا يشعر بي أحد.. وإني لأقسم أني أكلت أكلة ما أكلت مثلها قط في حياتي..

(١) الحجام: هو الذي يقوم بعمل الحجامة بامتصاص الدم من أجسام المرضى، وكانت العرب تأنف أن تأكل من يد حجام لحقارة مهنته.

ولما قضيت أربي من الطعام.. دخل الرجل.. وفي يده فاكهة و أبقال مختلفة في طسوت فخار جديدة.. فوضعها بين يدي.. وجعل ينادمني، وأنا أختار ما لذّ لي منه وطاب..

وارتاحت نفسي.. حتى بدت آثار السرور عليّ - فيما أقدّر - فقام الرجل إلى خزانة له فأخرج عوداً مصفحاً، وأقدم نحوي يتعثر، وقال والحياء يعقد لسانه:

ــ يا سيدي.. ليس من قدري أن أسألك الغناء.. لكن قد وجبت علىٰ مروءتك حرمتي.. فإن رأيت أن تشرّف عبدك فلك علو الرأي..

فتجاهلت أنني أجيد الغناء.. والتفت إليه أقول:

ــ ومن أين لك أني أحسن الغناء؟؟

وباستغراب شديد راح يجيب:

- يا سبحان الله!! مولانا أشهر من ذلك!!

فانتبهت إلىٰ نفسي.. وحاولت إخفاء أمري عنه.. فتجاهلت ما قد عرف.. وقلت له:

ــ وهل تعرفني؟؟

وببساطة متناهية أنشأ يقول:

ـ أجل!! أنت «إبراهيم بن المهدي».. خليفتنا بالأمس.. الذي جعل «المأمون» لمن دله عليه مئة ألف درهم!!

وصُدمتُ للوهلة الأولى لقوله هٰذا ولمعرفته حقيقة ما جهدت لإخفائه.. غير أنني ما لبثت أن ارتحت إليه.. فقد عظم في عيني.. وثبتت مروءته عندي من غير شك ولا مراء..

وتناولت العود من يده وأصلحته.. وغنيت.. وسرحت في الغناء.. ومر بخاطري فراق أهلي وولدي.. فكان غنائي نابعاً من القلب منبعثاً عن مرارة أحسها وأعانيها.. فأبدعت أيما إبداع..

واستولى الطرب على صاحبي.. وطاب عيشه كثيراً..

وبلغ به الطرب حداً جعله يعارك الحياء، ثم يقول بعد تلكؤ:
ـ يا سيدي!! أتأذن لي أن أغني ما سنح بخاطري، وإن كنت من غير أهل هٰذه الصناعة؟!

فقلت له وقد غمرني الطرب:
ـ هذه زيادة في أدبك ومروءتك.. خذ العود وغنّ..

فتناول العود من يدي.. ووضعه في حجره... وراح يصدح:

شكونا إلىٰ أحبابنا طول ليلنا فقالوا لنا: ما أقصر الليل عندنا
وذاك لأن النوم يغشي ُعيونهم سريعاً،ولا يغشي لنا النوم أعينا،
إذا ما دنا الليل المضرّ بذي الهوىٰ
جزعنا، وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثل ما نلاقي لكانوا في المضاجع مثلنا

وما كاد يتم غناءه حتىٰ بلغ بي الطرب حداً ما بعده طرب.. لقد أحسست بالبيت يتمايل معي حيثما ملت.. ويسير بي حيث فكرت.. وذهب عني كل ما كان بي من الهلع..

وطلبت منه أن يتابع الغناء.. فضرب على عوده.. وأنشأ يقول:

تعيّرنا أنا قليلٌ عديدُنا فقلت لها: إن الكرام قليلُ
وما ضرّنا أنا قليل وجارُنا عزيز، وجارُ الأكرمين ذليل
وإنا لقوم لا نرىٰ القتل سبّةً إذا ما رأته عامرٌ وسلول
يقرّب حبُّ الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول

فداخلني من الطرب ما لا يخطر على بال ولا يتصوره إنسان.. حتىٰ لكأني أسبح في الجنان..

وفي غمرة من السرور المفرط، طار خلاله كل ما كان يؤرقني ويحرمني النوم من فزع حتى لم يبق له أثر، هاجمني النوم بجحافله فاستولى على جفني فأطبقهما.. فاسترخيت نائماً نوماً عميقاً ما نمت مثله قط.. ولم أصحُ إلا بعد المغرب..

نظرت فوجدت الحجام مستسلماً للرقاد على مقربة مني.. فأيقظته فاستيقظ وأخبرته أن لا بد لي من الرحيل مغتنماً فرصة حلول الظلام لأتستر به.. وأخذت كيس نقود فيه دنانير ذهبية كان معي.. فرميت به إليه.. وقلت:

ـ أستودعك الله.. فإنني ماض من عندك..

ولما رأيته يحاول إعادة كيس الدنانير إليّ ربّتُّ على كتفه وعاجلت بالقول:

ـ اصرف ما في هذا الكيس في بعض شؤونك.. ولك عندي المزيد متى أمنت من خوفي..

فأعاده إلي وقد بدت على وجه آثار الانزعاج الممزوج بخيبة الأمل، وقال:

ـ يا سيدي!! إن الصعاليك منا لا قدر لهم عندكم!!

وقبل أن أؤكد له أنني سأضاعف له العطاء أضعافاً تابع يقول:

ـ أآخذ على ما وهبنيه الزمان من قربك وحلولك عندي ثمناً؟!

وراح يقسم بالله يميناً معظماً ويقول:

ـ والله الذي لا إلٰه غيره لئن راجعتني في ذٰلك لأقتلن نفسي!!

وبحركة عنيفة وضع كيس النقود في يدي.. ووقف يرقب حركاتي وكأنه يحذرني ألا أعود لمثل هذه الخطيئة المشينة أبداً..

فلم أجد بداً من أن أستجب لرغبته.. ووضعت الكيس في كمي وقد أثقلني حمله.. وسرت إلى باب الدار لأخرج إلى الطريق..

وعند الباب.. وقف صاحبي بتلطف زائد يقول:

ـ يا سيدي!! إن هٰذا المكان أخفىٰ لك من غيره.. وليس في مؤنتك علي ثقل.. فأقم عندي إلى أن يفرج الله عنك!!

فأسرني بتلطفه.. خصوصاً وأنني وجدت عنده من الراحة ما لم أجده في مكان آخر.. فاستجبت لطلبه.. ورجعت.. واشترطت عليه أن ينفق من كيس النقود الذي كان معي..

وأقمت عنده أياماً على تلك الحال.. في أحسن عيش..

غير أنني شعرت بثقل إقامتي عليه، خصوصاً وأنه لم يستجب لي في أخذ المصروف من كيس الدنانير الذي كان معي.. فخجلت من نفسي.. وشعرت بحرج شديد دفعني إلىٰ أن ألتمس فرصة خروجه لشراء بعض الحاجات من السوق.. فعزمت أن أتسلل وألوذ بالفرار من إساره.. فقمت وتــزيّيت بزي النساء.. لبست الخف.. والتففت بالملحفة.. ووضعت النقاب على وجهي.. وخرجت من الدار!!

وما إن صرت في الطريق حتى داخلني من الخوف أمر شديد.. وحرت في أمري أين أذهب؟؟

وعادت هواجس الخوف والهلع تبتلع، في لحظات، كل ما اكتسبته من أمن واطمئنان في منزل ذاك الرجل خلال أيام!!

وبت أرىٰ كل نظرة سهماً يصيب فؤادي.. وكل إشارة عصاً تلسع ظهري.. فلم أدر ما أفعل؟ ولا أين أنصرف؟!

وتعثرت في مشيتي حتى لكأنني كنت أحسّس الأعمىٰ أنني أنا هو المطلوب!!

وجئت لأعبر الجسر.. فإذا أنا بموضع مرشوش بماء.. فبصرني أحد الجند ممن كان في خدمتي.. ورأىٰ تعثر مشيتي واضطراب حركاتي.. فأنعم النظر فيّ.. فعرفني من وراء ملحفتي ونقابي.. فقد كان بي لصيقاً وبمظهري خبيراً..

وأسرع نحوي يقول:

ــ هذه حاجة سيدي الخليفة «المأمون»!!

ومد يده من على فرسه.. وتعلق بي.. فوقعت يده على الملحفة.. وشعرت أنني هالك لا محالة..

وبانتفاضة تشبه انتفاضة الديك المذبوح.. دفعت الجندي هو وفرسه.. فزلّت حافر الفرس.. وهوىٰ على الأرض، وهو لا يزال ممسكاً بالملحفة التي تخلصت منها.. وبادر الناس إليه يسعفونه مما هو فيه..

وتركت الناس مشغولين بإنقاذه.. وسحبت النقاب من على وجعي بعد أن طارت الملحفة.. وبادرت بالفرار.. وأسرعت في المشي حتىٰ قطعت الجسر.. واتجهت إلىٰ طريق فرعية.. نظرت فيها فرأيت امرأة واقفة على باب دارها.. فالتفت إليها ملهوفاً أقول:

ــ يا سيدة النساء!! احقني دمي.. فإني رجل خائف!! وسرعان ما لبّت رجائي وأغاثت لهفتي.. وفتحت لي الباب واسعاً وقالت:

ــ على الرحب والسعة..

وأطلعتني إلىٰ غرفة منزوية من المنزل.. وقدمت لي طعاماً.. وقالت:

ـ ليهدأ روعك.. فما علم بك مخلوق..

ولم أكد أتناول لقمة من الطعام حتى سمعنا الباب يدق دقاً عنيفاً. فجمدت اللقمة في فمي، وتيبس حلقي..

وبادرت المرأة إلى الباب تفتحه..

ومن وراء ستر استطعت أن أرقب الأمور على الباب..

انفتح الباب.. ودخل الناس في ارتباك وفوضى.. يحملون رجلاً مضرجاً بدمائه.. تسيل الدماء من رأسه المشدوخ..

أمعنت فيه النظر فإذا هو صاحبي.. الجندي الذي رميته من على الفرس.. لقد شدخ رأسه.. وضاعت فرسه.. وأُتي به إلى المنزل محمولاً مغمىٰ عليه!!

فأيقنت أنني هالك لا محالة!!

وأرهفت سمعي إلى ما دار من حديث.. فسمعت المرأة تخاطب زوجها الجندي قائلة:

ـ يا هٰذا.. ماذا دهاك؟!

فيصحو من غيبوبته.. ويجيبها بصوت خافت كأنما كان يسحب كلماته من قعر سحيق:

ـ ظفرت «بإبراهيم بن المهدي».. وانفلت من يدي.. وأوقعني على الأرض.. فشج رأسي.. وضحك علي الناس.. وأشفق علي آخرون.. وحملوني إلى البيت..

فأخرجت المرأة خرقاً.. وعصبت رأسه.. وأدخلته المخدع.. وفرشت له.. ونام عليلاً!!

ورحت ألوم نفسي تارة.. وألقي باللوم على حظي العاثر حيناً آخر..

واستسلمت للموت ماثلاً بين عيني.. ورحت أتوب إلى الله مما كنت اقترفته من ذنب.. وجرى لفظ الشهادتين على لساني مراراً. وشعرت بالموت يدب في أوصالي قبل أن ينفذ إليّ قضاء ربي!!

وبينما أنا بين الموت والحياة.. شعرت بالمرأة تصعد وتأتي نحوي.. وأنا مستسلم للموت.. لأريح من نفسي وأستريح..

ورمقتني المرأة بنظرة نافذة وقالت:

ـ أظنك هو.. أنت صاحب زوجي؟؟

فاستسلمت لما هو كائن..

وأشرت برأسي: نعم!!

فقالت:

ـ لا بأس عليك.. لا تخف.. إنك في أمان الله!!

فارتدت روحي إليّ وأنا لا أصدق ما أسمع..

وبادرت المرأة إلىٰ إكرامي بأنواع أخرى من الطعام كانت قد أدخرتها، الأمر الذي جعلني أطمئن إلىٰ صدقها فيما منحتني من أمان..

وأقمت عندها ثلاثة أيام، وأنا على غاية من الإكرام!!

وفي اليوم الرابع.. أتت نحوي.. وقالت:

ـ إنني خائفة عليك من هذا الرجل.. أخشى أن يطلع عليك فينمّ بك..

وفي همس الخائف.. التفتت إليّ تفضي بسر قائلة:

ـ قم .. وانجُ بنفسك!!

فسألتها المهلة إلىٰ الليل.. ففعلت..

ولما جنّ الليل.. لبست زي النساء.. وخرجت من عندها..

إلىٰ من أذهب؟؟ لقد تنكر لي جميع الإخوان!! ومكر بي كل الأصدقاء!!

ولاح لي أن أذهب إلى بيت مولاة كانت لنا . . توسمت فيها الوفاء لما كنت أخصّها من الرعاية!!

قصدت منزلها . . وكان قريباً . .

طرقت الباب . . فلما رأتني بادرتني بالمودة والتقدير . .

وأدخلتني المنزل، وهي تبكي وتتوجع ألماً وحسرة على ما ألمّ بي . . وحمدتِ الله على سلامتي . .

فشعرت أن الدنيا والحمد لله بخير . .

وقلت في نفسي:

ـ هنا يطيب لك المقام يا «إبراهيم»!! إنك الآن في دارك . . لا تحمل هم الإثقال على أحد . . فلك من اليد والدالة على هٰذه المرأة ما يجعلك تأخذ راحتك في الإقامة عندها . . وها هي ذي تبتهج لمرآك سالماً . .

ورأيتها تأخذ سلة السوق . . وتخرج من المنزل . .

فشكرت المولى على هٰذا الاهتمام البالغ الذي تبديه المرأة لي . . وتمددت قليلاً . . لأنعم بطعم الراحة التي فقدتها طويلاً . .

وما كدت أتوضأ وأغسل وجهي . . حتى شعرت بجلبة خفية وراء الباب . . وأحسست بالريبة تداخل فؤادي فجأة حتى تملكت عليّ نفسي!!

وبسرعة فائقة . . جمعت ثيابي . . وتسلقت السلم إلى السطح . .

فرأيت المولاة ومعها «إبراهيم الموصلي» بخيلة ورجله . . وقد أحاط الجند بالبيت!!

وفتحت المرأة الباب . . ودعت «إبراهيم الموصلي» ليدخل فقالت بهمس:

ـ تفضل يا سيدي!! ها هوذا داخل المنزل!!

ولذت بالفرار . . قافزاً من سطح إلىٰ سطح . . متستراً تحت جنح الظلام تارة . . . متخفياً بالملحفة والنقاب تارة أخرى . .

ومضت أيام . . كنت خلالها أفزع من خيالي . . وأتوجس خيفة من نفسي على نفسي . . حتى ساقني قدري إلى المثول بين يديك، وأنا أرتدي زي النساء!!

وما كاد «إبراهيم بن المهدي» ينتهي من سوق هٰذه القصة النادرة التي حدثت معه، حتى أطرق «المأمون» ملياً . . ثم رفع

رأسه، وقد علت وجهه أمارات الغضب، وبادر بالسؤال عن منزل كل من الحجام والجندي و المرأة والمولاة التي نمّت عليه.. فأخبره بذلك..

وما أسرع أن صفق المأمون بيده!! وأصدر أمره بإحضارهم جميعاً!!

وخلال ساعة من الزمن أُحضر الجميع بين يدي المأمون..

وأمر «المأمون» بإدخال المولاة التي تربت في نعمة «إبراهيم ابن المهدي» ثم خانت عهدها.. ونمّت عليه.. وأرادت تسليمه إلى «إبراهيم الموصلي» فقال لها:

ـ ما حملك على ما فعلت من خيانة سيدك وغدرك به، بعد أن أمّنتِه؟؟

فقالت:

ـ الرغبة في المال..

فقال لها:

ـ بئس ما طمعت به متاع زائل من الدنيا!! أين الوفاء بالعهد؟؟

وصمت «المأمون» قليلاً.. واتجه نحوها قائلاً:

ـ إنك، والله، لمنافقة من المنافقين.. وتأبين إلا أن تفضحي نفسك بأعمالك!!

وأمر بها. . فجلدت مئتي سوط. . وسيقت إلى السجن. . سجناً مؤبداً!!

ثم أمر بالجندي وامرأته. . وسأل الجندي عن السبب الذي حمله على فعل ما فعل من فضح ولي نعمته، فقال:

ـ الرغبة في المال!!

فقال له «المأمون»:

ـ أنت لا يليق بك أن تكون جندياً في خدمة الخلفاء. . بل يجب أن تكون في أخسّ صنعة. . ولا أليق بك من صنعة الحجامة!!

وأمر من يلزمه بالجلوس في دكان الحجام. . لتعلّم الحجامة. . والعمل بها!!

وسأل زوجة الجندي:

ـ ما حملك على ما صنعته، بعد ما رأيت ما حل بزوجك؟ فقالت:

ـ إغاثة الملهوف. . والوفاء بعهد بدر مني عندما قلت له:

ادخل على الرحب والسعة، فلقد تذكرت حديث رسول الله (ﷺ):

(آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ؤتمن خان) فكرهت أن أكون من المنافقين

فأعجب بها «المأمون». . وأكرمها. . وأدخلها القصر. .

وقال:

هذه امرأة عاقلة تصلح للمهمات من الأمور!!

ثم أمر بالحجام فأحضر.. وبوجه متهلل التفت إليه يقول:

ـ لقد ظهر من مروءتك ووفائك ما يوجب المبالغة في إكرامك!!

وسلم إليه دار الجندي.. وخلع عليه.. وأنعم عليه بالرزق الذي كان للجندي، وزيادة ألف دينار في كل سنة..

ولم يزل في تلك النعمة يقطف ثمار الوفاء والمروءة إلىٰ أن أدركته الوفاة..

الأكثر وفاءً

الأكثر وفاء(١)

كان رجلاً مكبلاً بأغلال الحديد في يـديه ورجليه.. قد لُفّ وجهه ورأسه وبعض أجزاء من جسمه بخرق بالية تجمد عليها الدم.. إنه ذاك الرجل المطروح على الأرض.. والخليفة «المأمون» يشير إليه مخاطباً صاحب شرطته «العباس بن المسيّب ابن زهيـر» قائلاً:

ــ خذ هٰذا إليك.. واستوثق منه.. واحترز في حفظه..

وكان «المأمون» متكئاً فجلس.. وتابع حديثه بنبرات حادة ما عهدت عنه قط، فقال:

ــ بكر به إلي في غد.. واحترز عليه كل الاحتراز!!

وسكت المأمون.. ووجم القوم.. لا يستطيع أحد منهم أن يهمس بكلمة.. فالخليفة غاضب غضباً ما عُهد عليه أبداً!!

(١) هذهالقصة مأخوذة عن كتاب «لمحمد بن إبراهيم بن الأحدب»المطبوع في ذيل كتاب «المستطرق في كل فن مستظرف»، وعن كتاب «المحاسن والمساوىء» للبيهقي.

وبادر «العباس» إلىٰ استلام الرجل الذي لم يكن يستطيع الحراك لما ألمّ به من الوجع والمرض، ولكثرة ما وضع به من القيود الثقيلة.. فأمر رجاله من الشرطة أن يحملوه.. فالتفوا حوله.. وتعاونوا في حمله بكل ما أوتوا من همة ونشاط..

ولئن كان «العباس» لا يدري شيئاً عن هٰذا الرجل الخطير الذي اؤتمن عليه.. فإن غضب «المأمون» وحدة نبراته، والتشديد على وجوب الحفاظ عليه، كل ذٰلك كان دليلاً ظاهراً على خطورة أمر هٰذا الرجل وعظيم فِعلته!!

وخرج «العباس» بالرجل من دار الخلافة.. وقد أثقلته الهموم في الحفاظ على هٰذه الوديعة الخطرة.. فراح يحدث نفسه قائلاً:

ـ إذا كانت هٰذه وصية الخليفة في وجوب المحافظة على الرجل.. فإنه ما ينبغي إلا أن يكون معي في بيتي.. أقوم بنفسي على الحفاظ عليه.. ومن يدري؟ لعل في الأمر سراً.. فأكون كبش الفداء.. فينصب علي جام غضب المأمون!! ومن له طاقة على تحمل غضب المأمون؟!

وأصدر «العباس» أمره إلىٰ رجاله.. بأن يستاقوا الرجل المحمول إلىٰ منزله.. وعلى وجه التحديد إلىٰ غرفته الخاصة.. حتى يكون تحت بصره، لا يغيب عنه لحظة..

ومضى الليل بخطوات وئيدة.. «العباس» في غرفته.. وأمامه الرجل مطروحاً على الأرض.. لا أحد يتكلم.. فالجو اليوم عاصف تجري فيه الأمور على نحو غير عادي..

وبدّد السكونَ المخيم كلماتٌ تفوه بها «العباس»، نفّس بها عما كان يحوك في صدره من سؤال يلح عليه فلا يجد له جواباً.. لقد توجه إلى الرجل.. وراح يطرح عليه السؤال الذي شغل فؤاده، منذ رآه، فقال:

ــ ما قصتك يا رجل؟؟ من أنت؟؟

وكان الجواب خافتاً.. من جسد أسقمه الضرب والتعذيب... ونفس أمضّها فقدان الأمل في البقاء علىٰ قيد الحياة..

ــ أنا.. أنا.. من أبناء «دمشق» الشام!!

واستعاد «العباس» ذكرياته سريعاً وقال:

ــ جزىٰ الله «دمشق» وأهلها خيراً.. إنهم لا أنبلَ ولا أكرمَ!!

وصمت «العباس» لحظات قبل أن يطرح سؤاله الآخر قائلاً:

ــ فمن أنت من أهلها؟؟

وكان الجواب:

ــ إنني واحد من أبناء «دمشق»..

وبعـد أن أفلتت من صدر الـرجل زفـرة طويلة تـابـع حديثه قائلاً:

ــ أراك تهتم بـدمشق وأبنائهـا، وكأنـك تعرف دمشق وسكانها!!

ــ أجل! أجل!!

هكذا قال «العباس» بلهفة ثم تابع حديثه يقول:

ــ إنني أعرف رجلاً.. أحب أن أتسقط أخباره.. هل تعرفه؟؟

ــ ومن هو ذاك الرجل؟!

ــ إنه «أبو مروان الحارثي»..!! هل تعرفه؟

ــ ومن أين تعرف «أبا مروان الحارثي»؟

ــ لقد وقعت لي معه قضية!! ولكن خبرني ـ بالله ـ هل تعرفه؟ ما أخباره؟.

ــ ما كنت بالذي أعرّفك خبره حتى تعرّفني قضيتك معه!!

وبصوت متهدج، يحمل بين نبراته ما يكنه صاحبه من انزعاج، راح «العباس» يقول:

ــ ويحك!! ما شأنك فيما كان بيني وبين صديق لي كان له الفضل علي؟؟

وبكلمات عنيفة تشبه الأوامر راح يقول:

ـ المهم: إذا كنت تعرف شيئاً عن «أبي مروان الحارثي» فخبرني عنه!!

غير أن الرجل اليائس من الحياة، والذي كان يتكلم دون أن يهتم بشيء، تمسك بسؤاله، وراح يصر بعنف أشد من عنف «العباس» وهو يقول:

ـ لن أخبرك شيئاً حتىٰ تخبرني بقصتك مع «أبي مروان» هٰذا!!

وتمالك «العباس» أعصابه وهو ينظر إلى هٰذا الإنسان الضعيف المطروح أمامه.. فأدرك أنه لا ينبغي له أن يبرز صولته وجولته أمام رجل ضعيف مكبل بالقيود.. وأحب أن يطيب خاطر الرجل بسرد قصته مع «أبي مروان» فأنشأ يقول:

ـ منذ سنتين كنت في «دمشق» مع الوالي أقوم له بعمل صاحب الشرطة فيها.. فبغىٰ أهلها.. وخرجوا علينا.. واشتد الشغب بصورة مفاجئة.. حتى أحاط الخارجون بقصر الحجاج حيث كان الوالي، وكنت عنده آنذاك.. وعجز الجند عن رد أولئك الخارجين.. وانهزموا أمامهم.. وكاد الناس يدخلون القصر، لولا أن أحد الحراس استطاع بأعجوبة أن يغلق الباب دونهم.. وهم في هرج ومرج شديدين..

ولم يجد الوالي وسيلة للنجاة بنفسه، بعد أن حاصر الخارجون القصر من كل جهاته، إلا أن يتـدلى هو وأصحابه في زنبيل[1] كان في إحدى الجهات المستورة من القصر. .

وهرب الوالي وأصحابه. . وكنت فيمن هرب معه. .

وأحس الخارجون بنا. . فلاحقونا. . فتفرقنا في دورب «دمشق». . وهم جادون بملاحقتنا في كل مكان!!

وبينما أنا هارب في بعض الدروب، والمشاغبون يعدون خلفي يريدون نفسي. . مررت بمنعطف من الطريق. . فلمحت رجلاً يجلس على باب داره. . فصحت به مذعوراً وأنا أقول:

ـ «أغثني أغاثك الله»!!

فما كان منه إلا أن فتح الباب وهو يقول:

ـ لا بأس عليك. . ادخل الدار!!

فدخلت. . وأغلق الرجل الباب ورائي. .

غير أن الناس الذين كانوا يلاحقونني أدركوا أنني دخلت المنزل فأتوا الرجل يطلبونني حتى كادوا يقتلونه، وهو ينفي أن أكون عنده. .

وارتبكت أنا داخل المنزل. . أسمع الأصوات. . ولا أدري ما أصنع!! غير أن زوجة الرجل أدركت الحال، وسارعت إلي تقول:

ـ تعال وادخل مقصورتي!!

فدخلت دونما تردد أو انتظار لتحجّب من فيها. . وارتميت على الأرض. . فلم تبق في رجلي القدرة على حملي. .

وسمعت صوت الشغب على الباب الخارجي يشتد. .

ويتكاثر الناس. . ويغلبوا صاحب الدار. . ويصيروا داخلها. . فلا يجد الرجل جواباً إلا أن يقول:

ـ «دونكم الدار. . فتشوها»!!

ففتشوها والله شبراً شبراً، حتىٰ لم يبق فيها مكان إلا المقصورة التي أنا فيها مع الحريم!!

ولما لم يجدوني. . أدركوا أنني في المقصورة لا محالة. . واتجهوا نحوها يريدون ولوجها. . والرجل أعجز من أن يوقف اندفاعهم ويردهم عن حريمه. .

وما كادوا يدفعون الباب. . حتىٰ تعالىٰ صراخ المرأة. . تصيح بهم وتنهرهم. . وتستصرخ النخوة من أصحاب النجدة. .

فثار بعضهم على بعض.. وتداعوا إلىٰ مغادرة الدار والبحث عن غريمهم في أمكنة أخرىٰ..

وانصرفوا.. وأنا لا أكاد أصدق!!

وخرج الرجل.. وجلس على باب دراه ساعة كما كان.. حتى يطمئن الناس إلىٰ عدم وجود أحد عنده.. ويطمئن هو على ابتعادهم عن المكان..

وبعد لأي، دخل الرجل مرتاح النفس.. والتفت إلي - متهللاً - يطمئنني بقوله:

ـ «لا تخف.. قد صرف الله عنك شرهم.. وصرت إلىٰ الأمن والدعة إن شاء الله تعالى».

فسُرّي عني.. ولم أعرف كيف أشكره.. غير أن لساني انطلق يعرب عن جانب من هٰذا الشكر.. داعياً الله أن يجزيه عني خير الجزاء!!.

وبقيت في كنفه أمداً طويلاً.. أفرد لي خلال ذلك في داره مكاناً خاصاً بي..

«وما زال يعاشرني أحسن معاشرة وأجملها.. ولم يحوجني إلىٰ شيء.. ولم يفتر عن تفقد أحوالي ليرعاها خير رعاية»!!

وطال بي المكوث عنده.. أربعة أشهر.. كنت خلالها في

أرغد عيش وأهنئه . . إلىٰ أن سكنت الفتنة وزال أثرها . . و والله ما سألني خلال هٰذه المدة الطويلة من أنا؟ وما الذي دعا أولٰئك إلى ملاحقتي؟ ولم يعرف من اسمي إلا كنيتي «أبا هشام»!!

وأحببت أن أخرج من المنزل، بعد أن هدأت الأحوال، لأتعرف حقيقة ما جرى وما آل إليه الأمر . . خصوصاً وأن لي غلماناً كانوا يعملون معي في الشرطة . . فأحببت أن أطمئن إلى حالهم، وأن أتعرف إلىٰ حقيقة ما جرى ممن تبقى منهم على قيد الحياة!!

فاستأذنت صاحبي بالخروج . . وشرحت له السبب . . فما أذن لي حتى أخذ مني العهود والمواثيق بأن أرجع إليه متى قضيت مهمتي هٰذه . .

وخرجت متخفياً . . أطلب غلماني وأعواني . . . فلم أر لهم أثراً . . ولم أستطع التعرف على ما يفيد . . غير أني توصلت إلىٰ قناعة في أنه لا جدوى من مقامي في «دمشق» بعد تلك الساعة . . فما فسد من العلاقات بيني وبين أبناء دمشق أعظم من أن تصلحه الأيام . .

ورجعت من حيث أتيت . . إلىٰ دار الرجل . . وأخبرته بأنني عزمت على التوجه إلىٰ «بغداد» . . فإن الوقت مناسب لأنجو بنفسي . .

فأخبرني بأن قافلة ستخرج بعد ثلاثة أيام . . وأكد علي أنه ما يذكر سفر القافلة إلا علىٰ سبيل الإعلام، لأرىٰ ما يصلح لي . . وراح يعيد ما أكده مراراً من أن داره مفتوحة لي ما أردت . .

فشكرته علىٰ فضله وما أسداه إلي من معروف لا يقدر . . وآليت على نفسي بالله عهداً أني لا أنسى له هٰذا الفضل ما حييت . . وأقسمت أن أوفيه فضله ما استطعت إلى ذٰلك سبيلاً . .

وفي صباح اليوم التالي . . دعا غلاماً له أسود . . وأمره أن يسرج الفرس ويجهز آلة السفر ! !

فقلت في نفسي : إنه يريد أن يخرج إلىٰ ضيعة له أو ناحية من النواحي ! !

وأقاموا يومهم ذاك في كد وتعب . . يعدون أدوات السفر . . وما يحتاج إليه من أطعمة ولباس وغير ذٰلك . .

ولما كان اليوم الثالث . . يوم خروج القافلة . . جاءني في السحر قائلاً :

ـ يا أبا هاشم! قم . . فإن القافلة تخرج الساعة . . وأكره أن تتأخر فتنفرد عنها ولا تستطيع اللحاق بها . .

فقلت في نفسي :

ـ «كيف أصنع، وليس معي ما أتزود به، ولا ما أكتري به مركوباً»؟؟

غير أنني لم أستطع أن أتفوه بكلمة مما جال في خاطري!!

وقمت، على مضض، متثاقلاً.. وأنا أقول في نفسي:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!!

وما كدت أخرج من غرفتي، أعني الغرفة التي كنت فيها، حتىٰ رأيت الرجل وامرأته ينتظراني علىٰ الباب، يحملان، صرة من أفخر الملابس، وخفين جديدين، وآلة السفر!! فاعتقدت أنهما مسافران الساعة أيضاً..

ولما رأيته يمسك بيده منطقته والسيف معلق فيها، قلت في سري:

ـ ها هوذا يتأهب للسفر.. ولا بد إلا أنه سيشد السيف على وسطه إيذاناً بالرحيل..

غير أنه اقترب مني.. ووضع المنطقة على كشحي.. وشدها على وسطي والسيف معلق فيها..

«ثم قدم بغلاً.. فحمل عليه صندوقين.. وفوقهما فرش».

ورفع إليّ نسخة سجل فيها محتويات الصندوقين.. وكان أبرز ما لفت انتباهي من ذٰلك هو وجود خمسة آلاف درهم!!

ـ «ثم قدم إلىٰ الفرس الذي كان قد جهزه، وقال لي:

ـ «اركب.. وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركوبك»!!

«وأقبل هو وامرأته يعتذران إليّ من التقصير في أمري»!!

وركب معي يشيعني إلىٰ خارج «دمشق»..

وانصرفت إلىٰ بغداد في أمان واطمئنان..

والتحقت بالخليفة.. وأنا غير ناس لفضل ذاك الرجل الدمشقي.. وأتمنى من كل قلبي أن أجد سانحة لأفي بعهدي له في مجازاته ومكافأته.. غير أن أمري مع أمير المؤمنين لم يتح لي الفرصة حتى هٰذه الساعة لأرسل إليه من يكشف خبره.. ولهذا أنا أسألك عنه لعلك تعرفه شيئاً من أخباره.. فتكفيني مؤنة البحث عنه.. وتيسر علي سبيل مكافأته على صنيعه الذي لن أنساه ما حييت!!

وكان «العباس» مسترسلاً في حديثه.. يجد متعة كبيرة في استعراض ذكريات ذاك الرجل صاحب اليد الطولى عليه.. وقد نسي أنه يوجه الحديث إلى أسير بين يديه، مقيدبأصفاد الحديد، ليس له أن يقصّ عليه هٰذه التفاصيل التي ربما لم يشرحها على هٰذا النحو الوافي لأخص المقربين إليه..

وما كاد ينتهي من استعراض الذكريات الغابرة.. حتى

حانت منه التفاتة إلىٰ الرجل أمـامه. . فرآه غارقاً بالبكاء. . غير أن بكاءه هٰذا كان غير بكاء الناس. . وإن صوته، صـوت بكائه، لم يبق فيه ذاك الأنين المحزون الذي كان يرين على حديثه قبل لحظات. .

لكأن الحياة قد دبت من جديد في هٰذا الذي يئس من الحياة. . حتى إن دموعه الغزيرة التي كانت تسيل على خديه كانت تغسل عنهما كل كآبة، فتعود إليهما حيوية الحياة ونضارة الاستشراق!!

ــ يا الله!! ما الذي قلب معالم الرجل؟!

وأجاب «العباس» على هذا السؤال الذي طرحه على نفسه، فقال في سره:

ــ لعله تـأثر بهـذه الحادثـة النادرة، فنسي نفسـه وما هو مفض إليه من موت!!

وتابع «العباس» نجواه قائلاً:

ــ بل ربما عرف صاحبي الذي حدثته عنه، فسر لما أرويه عنه وأمدحه به!!

ــ المهم أن أعرف من هٰذا الرجل شيئاً عن صاحبي الدمشقي. .

والتفت إليه يسأله:

ــ هيه يا أخا العرب.. ها قد رويت لك قصتي مع «أبي مروان».. فهل أنت محدثي شيئاً عنه إن كنت تعرفه؟

فلم ينبس الرجل ببنت شفة.. وأجهش يبكي.. بكاء ليس فيه أنين ولا أثر ألم.. بكاء غريباً **لا يفت في قلب سامعه**، على الرغم من الدموع التي كانت تنصب من عينيه على خديـه، فتبلل ثيابه!!

وحار «العباس» في أمره!!

وراح يؤكد عليه أن يخبره عن سبب بكائه..

ومن خلال دموعه الغزيرة.. وصوته المتحشرج.. قال:

ــ «لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء لصاحبك ومكافأته على فعله، ومجازاته على صنعه، بلا كلفة عليك، ولا مؤونـة تلزمك»!!

فلم يفهم «العباس» ما قال.. ولذلك راح يسأله عن مراده من ذلك..

فصمت الرجل لحظة.. حبس خلالها صوته ودموعه.. ثم انفجرت الدموع من العين غزيرة.. والصوت من الحنجرة أجشّ خشناً وهو يقول:

ــ «أنا ذاك الرجل»!! أنا «أبو مروان الحارثي»!!

فاهتز كيان «العباس» وانتابته قشعريرة.. وأحس أن آلاف الأصداء، تنطلق معه، تردد من كل مكان:

ـ أنا ذاك الرجل!! أنا «أبو مروان الحارثي»!!

أنا ذاك الرجل!! أنا «أبو مروان الحارثي»!!

وشعر بصدق دعوىٰ الرجل، شعوراً ضمنياً خفياً. تماماً كما تميز الأم المرضع فم وليدها عن غيره وهو يباشر ثديها!!

وعلى الرغم من إحساسه بصدق الدعوى، إحساساً خاصاً لا يحتاج إلى دليل، فقد ذهب يلتمس الأدلة!!

فراح يتفحص وجهه وملامحه من وراء تلك الخرق التي تيبس عليها الدم.. فعرف ملامحه.. وأنشأ يقول:

ـ إنها والله ملامح «أبي مروان» وهو يسعىٰ في خدمتي ويدافع عني.. وليس غياب بعض ملامحه الأخرىٰ عن مكانها في هٰذا الوجه إلا بسبب ما مسه من ضر وأذىٰ..

فأكب على وجهه.. يلثم ما بدا منه بلطف زائد.. حتى لا يسبب له شيئاً من الألم..

وذرفت دموعه غزيرة، وهو مكب على وجه صديق الأمس، حتى اختلطت دموعه بدموعه وبللت الثرى من تحتهما..

ورفع رأسه، وهو لا يكاد يصدق..

ونادىٰ الحداد.. ليضرب بمطرقتـه وإزميله على القيود فيكسرها ويفكها من يديه ورجليه، وهو يساعده في ذٰلك ما استطاع إلىٰ ذٰلك سبيلاً!!

وأدخله الحمام.. وألبسه من لباسه.. وأمر الطبيب أن يضمد له جراحه..

وأجلسه إلى جانبه يطارحه ذكريات الأيام الخاليه التي كان فيها في ضيافته.. ويعرف منه تفاصيل دقيقة كان قد نسي أن يذكرها في أثناء حديثه.. فتطمئن نفسه إلىٰ دليل جديد، وإن كان هو في غير حاجة إلىٰ الدليل.. فكما يقال: قلب الحر دليله!!

وسأل «العباس» جليسه «أبا مروان» عما جعله يصير إلىٰ هٰذه الحال.. وكان الجواب مختصراً مفيداً.. قال فيه:

ــ «هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التي كانت في أيامك.. فنسبت إلي.. وبعث أمير المؤمنين بجيوش.. فأصلحوا البلد.. وأُخذتُ أنا.. وضُربت إلىٰ أن أشرفت على الموت.. وقيدت.. وبُعث بي إلىٰ أمير المؤمنين.. وأمري عنده عظيم.. وخطبي لديه جسيم.. وهو قاتلي لا محالة»!!

وراح «العباس» يطمئن صاحبه إلى مصيره.. ويعلن له بحماسة عن إجابة كل طلباته..

غير أن «أبا مروان» ألح عليه في طلب واحد قائلاً:

ـ «لقد أخرجت من عند أهلي بلا وصية. . وقد تبعني من غلماني من ينصرف إلى أهلي بخبري. . فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لي أن ترسل من يحضره حتى أوصيه بما أريد. . فإذا أنت فعلت ذٰلك فقد جاوزت حد المكافأة، وقمت لي بوفاء عهدك»!!

وما أسرع أن أُحضر الغلام الذي أشار إليه من المكان الذي هو فيه قريباً من القصر!!

فلما رآه جعل يبكي ويوصيه وصية مودع!!

وما إن فرغ من إفضاء ما في نفسه إلى غلامه وقام يـودعه لينصرف حتى أدرك «العباس» الذي كان مشغولاً ببعض أموره ـ أن الغلام يريد الانصراف. . فمنعه من ذلك قائلاً:

ـ إلى أين يا غلام أنت منصرف؟؟

فارتعدت فرائص الغلام. . وظن أنه سيقبض عليه. .

وقبل أن يجيب. . سمع العباس يقول له:

ـ وهل يصح لك أن تترك خدمة سيدك، وهو أشد ما يكون حاجة إليك؟!

وأراد «أبو مروان» أن يتدخل ليشرح رغبته في ذٰلك. . إلا أن «العباس» بادر بالكلام قائلاً:

ـ يا غلام.. خذ بيد سيدك إلىٰ الباب..

وحيث أن الكلام كان أمراً من صاحب الشرطة، لم يجد «أبو مروان» بداً من أن يستجيب للأمر، ويستعين بغلامه حتى يصل إلىٰ الباب..

وهناك رأى عشرة أفراس مجهزة بكامل جهازها.. وعشرة من البغال عليها صناديق الكسوة والطعام.. كأنما أعدت العدة لسفر عشرة أشخاص، حتى خيل «لأبي مروان» أن صاحبه يريد سفراً مع صحب له في الصباح الباكر، بعد أن يوصل الأمانة التي عنده إلى «المأمون».. وها هوذا قد سيق إلى الباب، ليؤخذ به إلىٰ النهاية المحتومة!!

ووقف الرجل في مكانه جامداً لا يتحرك.. لا يدري ما يُطلب منه في هٰذا المكان!!

غير أنه رأىٰ صاحبه يتقدم إليه.. وبيده بــدرة عشرة آلاف درهم، وكيس دنانير مما يتسع لخمسة آلاف دينار.. فيقدمها إليه، ويقول له:

ـ اركب وسق معك هذه الأفراس والبغال..

ويلتفت إلى وكيله قائلاً:

ـ «خذ هذا الرجل.. وشيعه إلىٰ حد الأنبار».

فبهت «أبو مروان» وصاح فيه قائلاً:

ـ ماذا تقول يا رجل؟! هل أصاب عقلك مس؟!

وبحركة عفوية.. رد على صاحبه بدرة الدارهم وكيس الدنانير.. وشدد في نبرات صوته وهو يقول:

ـ مهلاً يا صاحبي!! «إن ذنبي عند أمير المؤمنين عظيم.. وخطبي عنده جسيم.. وإن أنت احتججت بأني هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كلَّ من على بابه فأرادوا قتلي»!!

فأصر العباس على موقفه قائلاً:

ـ «انـجُ بنفسك.. ودعني أدبر أمري»!!

غير أن الرجل الدمشقي أبى أن ينجو بروحه ويوقع بصديقه ويتركه بين براثن الموت المحتم.. فأقسم بالله قائلاً:

ـ «والله لا أبرح من بغداد حتىٰ أعلم ما يكون من خبرك.. فإن احتجت إلىٰ حضوري حضرت».

ولما رأى «العباس» إصرار صاحبه على موقفه هٰذا، بحيث لا يستطيع زحزحته عما عزم عليه، التفت إلىٰ وكيله يقول:

ـ إن كان الأمر علىٰ ما أرىٰ فليكن الانتظار في «الأنبار».. «فإن أنا سلمت في غداة غد أعلمته.. وإن أنا قتلت فقد وقيته بنفسي كما وقاني بنفسه»!!

وبعبارات صارمة راح يخاطب وكيله قائلاً:

ـ «وأنشدك الله ألا يذهب من ماله درهم.. وأن تجتهد في إخراجه من بغداد» سالماً..

وبينما كان الوكيل يذهب «بأبي مروان» إلىٰ مأمنه في «الأنبار» كان «العباس» يغتسل ويتحنط ويلتف بالكفن.. ثم يلبس ثيابه فوق ذٰلك!!

وأذن المؤذن لصلاة الصبح..

وما كاد صاحب الشرطة ينتهي من صلاة الصبح إلا وبابه يطرق.. إنهم رسل «المأمون» يطلبونه قائلين:

ـ «يقول لك أمير المؤمنين.. هات الرجل معك وقم»

فيصرفهم أمامه على أن يلحق بهم..

إنه لا يستغرب أن يلح «المأمون» في الطلب بمثل هٰذه السرعة.. وقبل أن ينتهي الناس من صلاة الصبح.. فهو قد أدرك اهتمام «المأمون» بالأمر منذ الليلة السالفة، عندما سلمه الوديعة الغالية التي أصر على وجوب حفظها!!

وطرقت ذاكرته من جديد نبرات «المأمون» الحادة وهو يقول:

استوثق منه.. واحترز في حفظه!!

وبكر به إلي في غـــد. . واحترز عليه كل الاحتراز!!

ولكن لابأس. . فليس في الأمر شيء أكثر مما وطد نفسه عليه!!

وسارع «العباس» وراء رسل «المأمون» حتىٰ دخل القصر معهم. . فإذا «المأمون» جالس. . قد ارتدىٰ ثيابه كاملة. . وجلس ينتظر!!

ولم تكد عين «المأمون» تقع على صاحب شرطته وليس معه الوديعة التي أودعها إياه، وألزمه الحفاظ عليها، حتىٰ تجهم وجهه علىٰ ما كان به من تجهم. . وامتلأ قلبه غيظاً وراح يقول:

ـ «ويحك!! أين الرجل؟؟»

وبهدوء الآمن غير المبالي بنتائج هٰذه الثورة الجامحة أجاب «العباس» قائلاً:

ـ «يا أمير المؤمنين. . اسمع مني»!!

وقاطعه الخليفة بحدة متناهية يقول:

ـ «لله علي عهد لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك»!!

وببرود المطمئن إلىٰ أنه لن يناله شيء أكثر مما وطن نفسه عليه، أجاب قائلاً:

ـ «لا والله.. ما هرب!!»

وصمت لحظات استقطب خلالها اهتمام «المأمون».. ثم أردف يقول:

ـ «ولكن.. اسمع ـ يا أمير المؤمنين ـ حديثي وحديثه.. ثم شأنك وما تريد أن تفعله في أمري».

ـ ولم يجد «المأمون» بداً من أن يكظم غيظه إلىٰ حين سماع ما كان من أمر الرجلين، لعله يحل هٰذا الطلسم!!

فسمح له ـ على مضض ـ بالحديث.. واستمع إليه وهو يروي قصته مع الرجل من أولها إلى آخرها..

و «المأمون» مستغرق في التفكير.. متلهف للسماع..

وختم «العباس» حديثه بقوله:

ـ هٰذا ما كان من ذاك الرجل الشهم.. ذاك الرجل الذي لم يكن له ذنب فيما نسب إليه..

وأردت أن أكافئه على ما فعله من معروف لن أنساه..

وشعرت أنه كان لزاماً علي أن أفي له بوعدي في أن أرد إليه جميله متى استطعت إلىٰ ذلك سبيلاً..

وصمت «العباس» لحظات.. ثم أردف يقول:

ـ ووفيت بوعدي. . وقمت بما ينبغي علي. . وما تجرأت علىٰ ذلك إلا ثقة في أنني مع سيدي ومولاي أمير المؤمنين بين أمـرين:

● «إما أن يصفح عني. . فأكون قد وفيت وكـافأت».

● «وإما أن يقتلني» فيه. . فأكون قد وقيته بنفسي!!

ومد «العباس» يده إلى ثوبه وخلعه. فبـدا من تحته الكفن. . وفاحت رائحة الحنوط والكافور. .

وفي غمرة من أمارات الاستغراب والدهشة التي علت وجه «المأمون» راح «العباس» يقول:

ـ وها أنذا ـ يا أمير المؤمنين ـ قد استعددت الاستعداد كله لأقي الرجل بنفسي. .

لقد اغتسلت قبل أن آتي إليك. .

وتحنطت بما يحنط به الموتى. .

والتففت بهذا الكفن الأبيض. . وودعت أهلي. . وكتبت وصيتي. . وها أنذا أقول بين يديك:

أشهد أن لا إلٰه إلا الله.

وأشهد أن محمداً رسول الله.

إني أموت مسلماً مؤمناً بالله!!.

فما أبالي بعد ذٰلك أن ألقىٰ وجه ربي.. فقد وفيت بوعدي.. وكافأت من أحسن إلي!!.

ما أبالي أن ألقى وجه ربي.. فقد رضيت عن نفسي.. ورضي عني ربي!!

ورفع «المأمون» رأسه يقول،وقد ارتسمت على وجهه أمارات الغضب:

ـ لا والله ما رضي عنك ربك!!

وصمت لحظة قبل أن يتابع حديثه بلهجته المغضبة قائلاً:

ـ ويلك!! لاجزاك الله عن نفسك خيراً».

وراح «المأمون» يقذفه بسهام غضبه، ويبين خطأ «العباس» فيما اعتبره عملاً سليماً خالياً من كل عيب، فقال:

ـ «إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة.. وتكافئه بعد المعرفة والعهد بهذا لا غير؟!!

«هلا عرفتني خبره.. فنكافئه عنك.. ولا نقصر في وفائك له»؟؟

وتغيرت صورة الموقف في نظر«العباس».. وبرقت عيناه تتفحصان وجه «المأمون» إنه يريد أن يتثبت.. فرأى أن الموقف موقف صدق.. لا يحتمل التأويل أو الخداع.. فصاح يقول:

ـ يا أمير المؤمنين.. إنه هٰهنا في «الأنبار».. فقد حلف أنه

لا يبرح حتى يعرف سلامتي.. فإن رأيتم حضوره حضرا!!.

فقال «المأمون» وقد علت أمارات الإعجاب وجهه:

ـ «وهٰذه منّة.. أعظم من الأولى»!!.

والتفت إلى «العباس» قائلاً:

ـ «اذهب الآن إليه.. فطيب نفسه.. وسكن روعه.. وائتني به حتىٰ أتولىٰ مكافأته»!!.

وطار «العباس» إلى «أبي مروان» بالبشرى.. يطمئنه.. ويهدىء من روعه..

واستبشر «أبو مروان» وغمرته الفرحة وهو يقول:

ـ «الحمد لله الذي لا يحمد على السراء والضراء سواه».

ثم قام وصلى ركعتين شكراً لله.. ثم ركب إلىٰ أمير المؤمنين..

ولما مثل بين يدي «المأمون» أقبل عليه.. وأدناه من مجلسه.. وراح يحدثه ويؤانسه حتى حضر الغداء فأجلسه على المائدة قريباً منه.. يهتم بإكرامه بنفسه.

وبعد الطعام.. خلع عليه.. وعرض عليه ولاية دمشق.. فاعتذر واستعفىٰ..

«فأمر له «المأمون» بعشرة أفراس بسروجها ولجمها.. وعشرة بغال بآلاتها.. وعشر بدر.. وعشرة آلاف دينار.. وعشرة مماليك بدوابهم..»

وكتب إلى عامله بدمشق.. يوصيه به.. ويأمره بإعفائه من الخراج..

«وأمره بمكاتبته بأحوال دمشق» بشكل دائم..

وكان كلما وصل بريد الشام، وفيه كتاب من «أبي مروان الحارثي» التفت «المأمون» إلى «العباس» قائلاً:

ـ يا «عباس»!! «هٰذا كتاب صدِيقك»!!.

بهرام المجوسي

«بهرام» المجوسي

في حي من أحياء «بغداد» كان شيخ مهيب وضيء الوجه يسأل عن بيت «بهرام» المجوسي . .

واستغرب الناس أن يقف هذا الشيخ ذو الصيت الذائع «عبد الله بن المبارك» ليسأل عن دار رجل مجوسي يعبد النار ويسجد لها من دون الله الواحد القهار!! وازداد عجبهم عندما عرفوا أنه قادم من حجه لم يرتح بعدُ من سفره الذي غاب فيه قرابة ثلاثة شهور، بدلاً من أن يجلس في داره ليستريح أو ليستقبل وفود المهنئين من كبار القوم وأعيانهم الذين اعتادوا أن يزوروه ملتمسين دعوة صالحة أو عظة مفيدة . .

ومهما يكن من أمر . . فإن الشيخ الجليل طلب من غلام على باب «بهرام» أن يستأذن له على سيده . .

ودخل «عبد الله بن المبارك» إلى قاعة ضخمة . . فإذا فيها رجل مسنّ جالس على أريكته في صدر المجلس، وحوله جماعة من الكتاب والحساب، وبين أيديهم أكوام من الدنانير والدراهم . .

وما إن دخل «عبد الله بن المبارك» القاعة حتى جعل يتمتم:

ـ ها هوذا الرجل المسنّ الذي وصفه لي رسول الله ﷺ . . ولا بد إلا أن يكون «بهرام المجوسي» نفسه. . وها هوذا يجلس على أريكته في صُدر المجلس، تماماً كما أخبرني رسول الله ﷺ قد بدت عليه آثار ضعف البصر وهزال الجسم!!

والتفت مَن في المجلس إلى هذا الداخل عليهم. . فرأوه يلقي عليهم السلام. . فردوا التحية بأحسن منها. .

ورفع الرجل المسنّ عن عينيه عصابة كان قد شد بها حاجبيه. . وحملق بالضيف. . ثم قال:

ـ من الرجل؟

وأرهف سمعه، ووضع يده على أذنه ليسمع جواب الرجل وهو يقول:

ـ «عبد الله بن المبارك»!!

ـ مرحباً بك. . لقد شممت بدخولك رائحة أزالت الهم عن قلبي!!

هكذا قال الرجل المسنّ وهو يفسح إلى جانبه مكاناً يجلس فيه هذا الضيف. . ثم التفت إليه يقول:

ـ أهلاً بك. . وهل لك من حاجة؟

وكان الجواب:

ـ نعم!!

ـ وما هي حاجتك.

ـ أن أخلو بك ساعة!

وما أسرع أن أمر من عنده بالخروج فخرجوا!!

والتفت «عبد الله بن المبارك» إلى جليسه «بهرام» يسأله:

ـ كم تعدّ من السنين؟؟

ـ أعد مئة وأربعين سنة!!

فهز «عبد الله» رأسه وكأنه يثبت بذلك صحة الكلام، ثم قال:

ـ هل تعرف أنك عملت شيئاً استوجبت به من الله الجنة؟؟

ـ لا أدري..

هكذا قال «بهرام» وقد علت وجهه أمارات الدهشة والتفكير، ثم تابع يقول:

ـ غير أني رزقت ثلاثة بنين وثلاث بنات.. فزوّجت بعضهم من بعض.. وأعطيت مهورهن من عندي.. وأفردت لكل واحد منهم مالاً وداراً وعقاراً..

فالتفت إليه «عبد الله المبارك» مغضَباً وهو يقول:

ـ إنك لا تستوجب بهذا العمل الجنة.. بل إنك تستحق بما صنعت النار!!

غير أن «عبد الله» لم يلبث أن استدرك قائلاً:

ــ ولكني أسألك ما إذا كنت قد عملت في حياتك الطويلة هذه عملاً صالحاً لآخرتك؟!

وكان الجواب على هذا السؤال أشد وقعاً على نفس «عبد الله» من الجواب الأول.. فقد علم أن هذا الرجل لم يزد على أنه كان يعبد النار خلال السنين الطويلة السابقة، ويسجد لها من دون الله الواحد القهار آناء الليل وأطراف النهار!!

فتبرم بهذا الجواب.. وراح يلح في سؤاله قائلاً:

ــ فهل لك فعل غير هذا؟

ولما سمع أن جوابه هو كلمة (لا) ارتسمت على وجهه أمارات ظاهرة من التعجب الشديد وراح يقول:

ــ يفعل الله ما يشاء، ويحكم ما يريد!!

ثم التفت إلى جليسه يقول:

ــ إذن خبرني بالله.. بم استحققت الجنة؟!

وما كاد «بهرام» يسمع سؤال «عبد الله» هذا حتى استغرب الاستغراب كله أن يتألى «عبد الله» على الله، ويتكم فيما لا علم لأحد به إلا علام الغيوب، وسارع يقول:

ــ ويحك يابن المبارك!! كيف تقول هذا؟؟ أو تقطع لي

بالجنة وأنت عالم المسلمين؟! ومن أخبرك بذلك؟؟

وازداد دهشة على ما به من دهشة عندما سمع «عبد الله» يقول:

ـ أخبرني الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ.

فالتفت إليه متلهفاً يقول:

ـ فما القصة؟؟ خبرني فداك أبي وأمي!!

واعتدل «عبد الله» في جِلسته.. وراح يقول:

ـ بينما كنت أطوف حول الكعبة المشرفة.. شعرت بإعياء يصيبني.. فانتحيت جانباً قصياً من المطاف.. وجلست أستريح قريباً من البيت الحرام، تجاه الملتزم.. ووضعت رأسي على ركبتي.. فغلبني النوم.. فرأيت النبي ﷺ..

واقترب «بهرام» من «عبد الله» حتى لاصق جسده جسده وقال:

ـ هيه.. خبرني.. وماذا رأيت بعد ذلك؟ أم إنه يحلو لك الآن أن تصمت؟

وتابع «عبد الله بن المبارك» حديثه وقد انفلت من حبسة تأملاتة البعيدة بُعَيْدَ قطرة من الدمع ذرفتها عينه فقال:

ـ رأيت رسول الله ﷺ يقول لي:

ـ يابن المبارك . . إذا أنت قضيت حجك، وحللت عقدك، ورجعت إلى أرض العراق، ودخلت دار السلام . . فاقصد الحلة التي بها «بهرام المجوسي» فإذا لقيته فأخبره أن النبي العربي محمداً ﷺ يسلم عليك!!

وأجاب «بهرام»:

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . .

ثم راح متلفهاً يستحث «عبد الله» على إتمام الحديث فقال:

ـ أتمم . . وماذا قال لك؟

ـ ثم طلب مني أن أبشرك بأن قصرك في الجنة غداً من أقرب القصور إلى قصر المصطفى عليه الصلاة والسلام . .

ـ ما هذا الكلام يا «عبد الله»؟؟ إنني لا أكاد أصدق ما تقول!! أو يمكن أن يكون لمثلي قصر في الجنة هو أقرب القصور إلى قصر نبيكم! لا شك أنك كنت في حالة هذيان، أو أن الشيطان وسوس إليك بذلك!!

ـ أجل يا «بهرام»!! هذا ما ظننت!!

فلقد أفقت من منامي فزعاً مرعوباً . . وتفكرت ساعة فيما رأيت . . فما زدت على ما قلتَ من أن الأمر إنما هو من قبل الشيطان!!

ـ إذن لماذا أتيت تخبرني به؟

هكذا قال «بهرام» ثم تابع يقول:

ـ أو تريد أن تهزأ بي عندما تدّعي هذه الدعوى العريضة بأنني من أهل الجنة؟؟

ـ لا يا «بهرام». .

قال ذلك «عبد الله بن المبارك» وهو يشدد في نبرات صوته ليؤكد بذلك صدق دعواه، ثم أردف يقول:

ـ ما غادرت مجلسي ذاك حول الكعبة المشرفة، وما غيرت جلستي التي كنت أجلسها إذ غلبني النوم مرة أخرى. . ورأيت النبي ﷺ. .

ـ هيه. . خبرني بالله عليك. . ماذا قال لك هٰذه المرة؟

هٰكذا قال «بهرام» متلهفاً، وقد قطع حديث «عبد الله بن المبارك» الذي تابع يقول:

ـ لقد قال لي النبي ﷺ:

ـ «يابن المبارك. . لا تشك في منامك. . فهو حق. . والشيطان لا يتمثل بصورتي قط. . فإذا قضيت حجك، وانصرفت إلى العراق، فاطلب هذا المجوسي «بهرام». . وبشره بما قلت لك»!!

ـ شيء عجيب والله ! ! ولكن ذلك أمر عظيم . . عظيم حقاً ! !

وتابع «عبد الله بن المبارك» حديثه يقول :

ـ فانتبهت أيضاً فزعاً مرعوباً . . واستعذت بالله . . واستغفرته . . وتفكرت ساعة . . وغلبني النوم وأنا في مجلسي ذاك لم أغادره . . فرأيت النبي ﷺ ثالث مرة وهو يقول :

ـ «يابن المبارك . . أنا محمد رسول الله . . فلا ترتب في ذلك . . وامتثل أمري فهو حق» .

وقاطعه «بهرام» يقول :

ـ أجل ! ! إنه حق والله . . حق . . ولكن . .

وتابع «عبد الله» حديثه قائلاً :

ـ فقلت : يا رسول الله . . أريد بذلك علامة ألقاه بها ! !

ـ صح . . وهل أعطاك العلامة يا شيخ؟

ـ أجل يا «بهرام» ! ! لقد أخذ رسول الله ﷺ كفي بيمينه ثم قال لي :

ـ «يابن المبارك . . هذا المجوسي شيخ زمن . . قد أتى عليه مئة وأربعون سنة . . وقد ضعف بصره . . وثقل سمعه . . وابيضّ شعره . . ودق عظمه . . ويبس عصبه وجلده . . فإذا أتيته وسلمت عليه وبشرته بما قلت لك ، وطلب منك علامة فامسح بيدك هذه

التي أخذتها بيميني على رأسه، ومرّ بها على وجهه وسائر جسده وبدنه، فإنه يعود شاباً، ويرجع إليه بصره وسمعه، ويسود شعره، ويطرى جسده، ويقوى عصبه، وتعود إليه قوته»!!

ومد «عبد الله المبارك» يده، فمسح بها رأس «بهرام» ووجهه وصدره وبدنه.. فعادت الحيوية إليه، وكأنما عاد شاباً حسناً طرياً سميعاً بصيراً.. واسود شعره.. وابيضت بشرته!!

وتأكد بذلك للجميع صدق ما رأى..

واطمأن «بهرام» إلى صدق البشرى.. فالتفت إلى «عبد الله» وهو لا يكاد يصدق ما حل به من قوة وحيوية، ومد يده إليه يقول:

ـ امدد يدك يا شيخ..

فمد «عبد الله بن المبارك» يده.. ووضعها في يد بهرام الذي أنشأ يقول:

ـ أشهد أن لا إله إلا الله.. وأن محمداً رسول الله..

وأطرق «بهرام» قليلاً، وقد اغرورقت عيناه بالدموع..

وأطرق «عبد الله بن المبارك».. فلم يستطع أن يتمالك دموعه فرحاً بإيمان كبير من كبراء المجوس..

وجهد «بهرام» ليتمالك نفسه.. فكفكف دموعه وراح يهز

رأسه وهو يخاطب «عبد الله» قائلاً:

ـ الآن أخبرك ـ يا شيخ ـ بالسبب الذي أوجب الله لي هذه المنزلة..

فرفع «عبد الله» رأسه بلهفة يقول:

ـ هات يا رعاك الله!!

وأمسك «بهرام» منديله بيده يمسح به ما تبقى من عبرته، وأنشأ يقول:

ـ منذ مدة أولمت وليمة عامة للمسلمين والنصارى واليهود والمجوس.. فأكلوا وانصرفوا.. وانقضت الوليمة.. فلما كان في بعض الليل طرق طارق، وقد هدأ الناس ونام الخدم لما أصابهم من التعب بسبب الوليمة، وأنا جالس منتبه.. فقلت:

ـ من بالباب؟

فسمعتُ صوتاً ضعيفاً لامرأة من وراء الباب يقول:

ـ أنا امرأة من جيرانك.. انطفأ سراجنا وبقينا في العتمة.. فإن شئت فأوقد لنا هٰذا السراج..

فحرت في أمري!! ماذا أصنع؟؟ أأخالف عادة المجوس في كراهيتهم إخراج النار في الليل من بيوتهم، أم ألبي طلب هٰذه المرأة التي قصدتني، وللجار على الجار حق؟؟

وقمت من مكاني.. وغلّبت رأي الخير.. وأعطيت الجار حقه على كره مني.. وأوقدت لها سراجها..

وما كادت المرأة تنصرف بالسراج حتى عادت إلى طرق الباب تقول:

ــ يا «بهرام».. قد انطفأ السراج.. فأوقده لي مرة أخرى..

ففتحت الباب.. وتناولت سراجها.. وأوقدته مرة أخرى.. وناولتها إياه..

فأخذته مني وهي لا تريد أن تأخذه!!

وانصرفت وهي لا تريد الانصراف!!

فما دريت لذلك سبباً!!

ولولا أني أعرف حسن سلوكها، وصلاح أمرها، وتقواها، لشككت في الأمر!!

وقبل أن أحكم إغلاق الباب سمعتها تقول:

ــ مهلاً يا «بهرام»..

فأعدت فتح الباب لأرى ما بها.. فرأيتها تتلعثم في الكلام.. ثم تشد من عزيمتها وتقول:

ــ يا «بهرام».. والله ما جئتك لأجل سراج!!

ولكن جئتك من أجل ثلاث بنات شممن روائح طعامك..

فهن ملقيات على وجوههن يتضاوون كالمرأة الثكلى أو كالحبة في المقلى.. فإن كان قد بقي في دارك فضل طعام فأعطني مما أعطاك الله.. فإنك إن شاء الله تملك بذلك الجنة!!

فقلت لها: حباً وكرامة.. انتظري قليلاً..

وأخذت منديلاً كبيراً.. وجعلت فيه من كل شيء كان في البيت من الحلو والحامض.. وأخرجت كيساً فيه ألف دينار.. وكيساً فيه ستة آلاف درهم.. وستة أثواب من حرير ديباج.. وستة أثواب مرزوية.. وشددت الجميع وقلت لها: احملي هذا إلى عيالك.. واقسمي عليهم..

فمدت المرأة يدها لتحمل ما أعددته لها فلم تطق حمله.. فقالت:

ــ يا «بهرام».. أعني أعانك الله على الوقوف بين يديه، وخفف عليك الحساب في ذلك اليوم الشديد..

فتحيرت في أمري ماذا أفعل؟ وقلت لها:

ــ يا هٰذه.. كيف أفعل، وأنا شيخ كبير، وقد مضى علي مئة ونيف وثلاثون سنة؟؟

وأطرقتُ ملياً أفكر.. فما عتمت أن شرح الله صدري لإجابة طلبها.. فالتفت إليهاأقول:

ــ عاونيني في رفعه على رأسي . .

وساعدتني في ذلك . . إلى أن صار الحمل على رأسي . . فرحت أمشي به إلى منزلها وأنا لا أكاد أقوى على المشي وحدي . . غير أن الله سلم . . ودخلت المنزل . . وحططت الحمل وقد سال العرق على جبهتي فبلل رأسي . . واستخرجت ما في الحمل من طعام . . وجعلت أطعم البنات بيدي إلى أن شبعن ونشطن . . ثم قسمت عليهن الثياب والدراهم والدنانير . . ففرحن فرحاً عظيماً . .

وما خرجت من منزلهن إلا وقد شعرت أنني قد جبرت ما انكسر من خاطر هؤلاء النسوة الضعيفات ، وأدخلت عليهن فرحاً ما شعرن به قط ! !

وبينما أنا أخرج من باب دارهن مودعاً قلن لي :

ــ يا «بهرام» . . أصلح الله لك أمورك ، وأدام سرورك ، كما أصلحت أمورنا وأدمت سرورنا . . وفرحك يوم القيامة كما فرحتنا . . وختم لك بخير . . وأنزلك أقرب قصر من قصر نبينا محمد ﷺ في دار الجنان . .

وكانت لا تخرج كلمة من أفواههن ساعتئذ إلا وأقول : آمين . . وشعرت أن ما من شيء حولي إلا ويردد معهن الدعاء . . كما أن كل شعرة في جسدي كانت تسري بها القشعريرة وهي تردد معي آمين ! !

ومنذ ذلك اليوم.. وأنا أرجو من الله استجابة دعائهن..

وها أنذا أرى علائم البشرى.. ويالها من بشرى عظيمة!!

وهنا التفت «عبد الله بن المبارك» يقول:

ـ أبشر.. أبشر يا «بهرام».. فإن الله حقق لك ذلك.. وسخر لك رسوله ليأمرني بأن أزف إليك البشرى!!

ألم تستمع إلى قول رسولنا الكريم:

(لا تحقر من المعروف شيئاً، ولو أنك تفرغ من دلوك في إناء أخيك).

إنه لمعروف عظيم!! فيه جبر خاطر بنات قاصرات.. وإن دعاء مكسور الخاطر يخرج من قلبه.. فهنيئاً لك على ما نلت من فضل ربك!!

والتفت «بهرام» يقول:

ـ اشهد علي يا شيخ.. بأنني قد دخلت في دين الإسلام.. وأنني سأعمل جاهداً على أن يدخل في هٰذا الدين الحنيف جميع أبنائي وذريتي وأقاربي وجميع من يلوذ بي..

ودخل في الإسلام في ذٰلك اليوم من أبنائه وأقاربه وأصدقائه من المجوس عدد كبير..

وتفرق الإخوة عن الأخوات.. وتزوج الأولاد من

المسلمات.. وتزوجت البنات من المسلمين..

وتصدق «بهرام» في ذلك اليوم ـ شكراً لله على ما منّ به عليه ـ بمئة ألف دينار.. وبمئة ألف ثوب مرزويات.. وبألفي ثوب حرير ديباج..

وفرق سائر أمواله على أولاده وبناته..

وانفرد عن أهله..

ولزم المحراب يعبد الله وحده لا شريك له.. إلى أن توفاه الله..

﴿ذٰلكَ فَضْلُ الله يؤتيه مَنْ يشاءُ، واللهُ ذو الفَضْلِ العظيم﴾.

صدر للمؤلف

الطبعة الجديدة ، مزيدة ومنقحة ، من كتاب :

(النحل تسبح الله)

- الكتاب الذي تناولته بالدراسة المجلات والإذاعات العالمية .

- الكتاب الذي عدته مجلة (Bee World) الانكليزية أحد المراجع العالمية الأكثر علمية وفنية (The more technical)

الكتاب الذي يظهر التوافق الكبير بين العلم والدين ...

- فيه تأخذ بيدك إحدى النحلات ، لتخوض معك غمار خليتها ، فتقوم بدراسة علمية للنحلة : طباعها وتصرفاتها ، ولغة تخاطبها ، وطريقة إنجاز الأعمال في مملكتها ، وأسلوب الحكم لديها ، وكيفية صنعها العسل ، وما أودعه الله في العسل من خواص الشفاء ...

يتخلل ذلك كله ، لفتات نحو اليد الخفية ، التي أتقنت الصنع ، وأبدعت في الترتيب والتنسيق ...

كما يجري بين ثنايا هذا البحث العلمي المستفيض ، مقارنة دقيقة بين آراء العديد من كبار العلماء المجلين في مضمار العلم ، وبين معطيات الدين الحنيف ...

ـ هل قرأت للمؤلف سلسلة (قصص من التاريخ)؟

إنها سلسلة من القصص التاريخي، تعمل على أن تنفض غبار النسيان، عن تاريخنا المجيد، ليكون ذاك التاريخ الناصع، نقطة انطلاق إلى مستقبل مشرق..

١ ـ **الدين الحق:** يعرض فيها المؤلف قصة أحد الدعاة الإسلاميين. . الذين عملوا على رفع لواء الإسلام عالياً خفاقاً، حين انهزمت الجيوش الإسلامية، ودُمرت الخلافة العباسية على أيدي المغول.

٢ ـ **فأين الله** : مجموعة من القصص القصيرة تروي:

* صيحة «عبد الله بن عمر» في جوف الصحراء.

* إسلام «الدكتور كراين» الأمريكي الجنسية.

* إيثار الإمام «الواقدي» وإخوانه.

* الشيخ «عبد القادر». . رجل العلم والتقوىٰ.

٣ ـ **الإيمان. . والزنزانة المتجولة:** قصة «كعب بن مالك» رضي الله تعالى عنه. . وهو يروي لنا الصراع العنيف الذي دار في

نفسه وهو في سجنه الغريب من نوعه. . ذاك السجن الذي أودعه فيه رسول الله ﷺ مدة خمسين عاماً.

٤ ـ **أم. . لا كالأمهات**: تروي لك قصة البطولة الحقيقية في:

* أم . . عملت على إعداد ولدها، فكان أستاذ الإمام «مالك».

* أب. . جاهد خلال ٢٨ عاماً متواصلة لم يعد خلالها إلى أهله.

* ابن. . طلب العلم حتى صار مفتي المدينة المنورة غير منازع.

٥ ـ **صراع بين الفضيلة والرذيلة**: يروي الصراع النفسي العنيف الذي تعرض له بعض المؤمنين، عندما جاءتهم الرذيلة تعرض نفسها عليهم:

* **المسكي**: قصة إنسان كالملائكة، صمد في وجه الحرام، صمود الأبطال العظام!!

* **يحرق أصابعه** : قصة إنسان أحرق أصابعه حتى يردع النفس الأمارة عن الوقوع في الحرام!!

* **الولد الشامي**: قصة فتى من دمشق، تجسد على نطاق الواقع العملي، حديث رسول الله ﷺ:

(من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه)

٦ ـ **مهد البطولات** : يروي قصتين يفخر بهما التاريخ..

* إحداهما دارت حوادثها أثناء صراع أمتنا مع الرومان.
* والثانية جرت وقائعها على هضاب الجولان خلال حرب رمضان.

٧ ـ **عدل أم جور**: يعمل على إحياء بطلين من أبطالنا العظام، ليكونا ماثلين في الأذهان، يتحركان في خاطر كل إنسان:

* **ما فوق العدل**: وهي تروي قصة سمو الإنسان فوق الحق.. قصة «**فيروز الديلمي**» رضي الله عنه الذي قال عنه رسول الله ﷺ:

(رجل مبارك، من أهل بيت مباركين).

* **عدل أم جور**: قصة العدل العمري ومن سار على دربه في تحميل نفسه فوق طاقتها لينجو بين يدي الله.. قصة «سعيد بن عامر الحذيمي» رضي الله عنه، الذي لم يُعرف فضله على حقيقته

إلا عنـــدما شكاه بعض من أهل حمص الى عمر بن الخطاب.

٨ ـ **وفاء**: يروي لنا قصص أمجاد أمتنا فيما تمسكت به من أخلاق كريمة جعلتها في ذروة المجد:

* **وفـــاء**: تروي لنا قصة «إبراهيم بن المهدي» عم الخليفة «المأمون»

* **الأكثر وفاء**: تروي لنا قصة «العباس» صاحب الشرطة مع من كان قد أسدى إليه يداً.

* **بهرام المجوسي**: تروي لنا انتقال «بهرام» من المجوسية إلى الإسلام، تماماً كما أخبر نبينا محمد ﷺ عبد الله بن المبارك في المنام.

٩ ـ **كلمة حـــق**: يروي لنا قصصاً يحق لأمتنا أن تتيه فخراً بها:

* **كلمة حق**: قصة الشيخ الخياط الذي لم يأل جهداً في إنكار المنكر.

* **عقد اللؤلؤ**: قصة العقاب الذي ينزل بمن خان الأمانة.

* **قبلة في الجبين**: قصة «عبد الله بن حذافة السهمي» عندما كان أسيراً بين يدي «قيصر الروم» في حين أن الأسر الحقيقي كان لقيصر والآسر في ذلك هو من في يديه القيود «عبدالله بن حذافة السهمي».

هل قرأت للمؤلف سلسلة «شعب الإيمان»؟

السلسلة التي تعمل على توضيح بنود الإيمان واحداً بعد الآخر. . وكان أولها في كتاب:

«الإيمان بالله».

ويلي ذلك إن شاء الله.

«الإيمان بالرسل».

«الإيمان باليوم الآخر».

هل اقتنيت نسخة من «تفسير وبيان»؟؟

● إنه تفسير موجز مفيد، على هامش كتاب الله الكريم، بالرسم العثماني. وقد تم طبعه وإخراجه بشكل أنيق يسهل معه مراجعة المعنى المقصود.

● فيه أحاديث نبوية منتقاة تناسب الآيات.

● مذيل بكتاب أسباب النزول للإمام السيوطي.

● حجمه (جوامعي) يسهل المطالعة ويريح البصر.

وهل اقتنيت نسخة من «مفردات القرآن»؟؟

● إنه تفسير موجز مفيد، على هامش مصحف حفاظ بالرسم الإملائي، يساعد الحافظ على ترسيخ حفظه، كما يسهل عليه الرجوع الى المعنى المقصود. وقد تم طبعه وإخراجه بشكل أنيق.

● فيه أحاديث نبوية منتقاة تناسب الآيات.

● مذيل بكتاب أسباب النزول للإمام السيوطي.

● تم إخراجه في حجمين:

ـ صغير بحجم الكف: يسهل حمله في الحل والترحال.

ـ وسط بحجم الربع: يرتاح إليه الإنسان في المنزل والمكتبة.

تطلب جميعها من:

دار الرشيد، دمشق ـ حلبوني ـ ص. ب ٢٤١٣

بيروت ـ عائشة بكار ـ ص. ب ٦٣٣٤ / ١١٣.